

مع الإسلام

١



الأخلاق

فى الإسلام

تأليف

الدكتور محمد يوسف موسى





تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مع الإسلام

١

الأخلاق
في الإسلام

تأليف

الدكتور محمد يوسف موسى

تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

ملتزم الطبع والنشر
مؤسسة المطبوعات الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح ومنهاج

الحمد لله الذى يقول فى محكم كتابه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . وهو الذى اصطفى محمد بن عبد الله من خلقه ، وجعله — وهو العربى الأمى — خاتم أنبيائه ورسله ، ووصفه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . والصلاة والسلام على هذا الرسول المصطفى الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، الذى يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، والذى عرف للأخلاق جليل خطرها حتى قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وبعد ! فهذا كتاب فى « الأخلاق فى الإسلام » أردنا بكتابته على النحو الذى يراه القارىء ، التعريف بالأخلاق الإسلامية الفردية والاجتماعية ، فى غير استيعاب لجميع التفاصيل التى جاء بها فلاسفة الأخلاق فيما بعد ، أى بعد ما عرفوا الفلسفة اليونانية بصفة خاصة .

وهدفنا من هذا ، أن نيسر الأمر على القارىء ، وأن نقفه — فى غير مشقة عليه — على ما جاء به القرآن والرسول ورجالات الأخلاق فى الإسلام فى هذه الناحية التى لها خطرها المعروف .

ورأينا من الخير ، بل من الضرورى للبحث ، أن نقدم بين يدى ذلك فصلا عن الأخلاق العربية قبل الإسلام، هذه الأخلاق التى كانوا يأخذون أنفسهم بها ويسيرون عليها ، فكان منها ما أبقى لهم ذكرا عطراً خالداً على الزمان .

ثم نتكلم بعد هذا ، فى فصل ثان، عن الأخلاق الإسلامية كما تؤخذ من منابعها الأصيلة الأولى : كتاب الله وسنة الرسول .

ثم نعرض فى فصل ثالث ، لبعض الأخلاق السيئة التى تضر بالفرد والمجتمع ضرراً بليغاً ، ومع هذا يرضاها بعض الناس لأنفسهم ، وهى ليست فى شيء من الإخلاق التى وصى بها الإسلام .

وأخيراً ، تجيء خاتمة البحث ونتيجته : وفيها نتحدث عن ضرورة دراسة علم الأخلاق ، كما ينبغى ، فى معاهدنا العلمية على اختلاف ضروبها ، ثم عن قيمة هذه الدراسة وخيرها الكثير .

على أن يكون كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، المرجعين الأولين لهذه الدراسة ، مضافاً إليهما ما يكون من خير من تفكير فلاسفة الأخلاق، ما دام لا يتعارض فى شيء مع ما جاء به الإسلام .

هذا ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل وأن يمدنا بروح من عنده ، وأن يديم علينا نعمة التوفيق والسداد ؟

روضة القاهرة { رجب سنة ١٣٧٩ هـ
يناير سنة ١٩٦٠ م }

الفصل الأول

فى الأخلاق العربية قبل الإسلام

جاء الإسلام والعرب ، بل العالم كله على اختلاف أجناسه وشعوبه ، فى أشد الحاجة إلى الإسلام من نواحى العقيدة والشريعة والأخلاق ؛ فآتاهم العقيدة الحقة التى تتقبلها العقول كافة ، والشريعة العادلة الصالحة لكل ناس وزمان ومكان ، والأخلاق التى يسعد بالعمل بها الفرد والجماعة ، والنظم التى لا يقوم المجتمع إلا بها .

وهؤلاء العرب الذين كانوا مهد الإسلام أولا ، ثم حماته ودعاته وحملة رسالته فيما بعد ، إلى أقطار العالم كله ، كان لهم من الخلال والأخلاق المتأصلة فى نفوسهم ما جعلهم أهلا لحمل هذه الرسالة العظمى التى وضعها الله على عاتقهم .

ومن ثم ليس لباحث منصف أن يزعم أنهم فى ناحية الطباع والأخلاق بخاصة كانوا فى كل حال على ضلال مبين ، وإلا ، لما كانوا أهلا لما حملوه من الله ، ولا للمنزلة العظيمة التى وضعهم الله فيها وعرفها لهم التاريخ .

وفى هذا نذكر كلمة حق لابن المقفع ، يقارن بها بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى ، وذلك إذ يقول :

« إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت : أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوله ويتفضل بمجهوده ويشارك فى ميسوره ومعسوره ؛ ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ماشاء فيقبح ؛ أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم .

فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم على أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ؛ فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم .

هكذا يقول ابن المقفع وهو الفارسى الأصل ، وإن صار من أهل العروبة بالدين الحق الذى هدى إليه ، واللغة العربية التى كتب بها ، والأدب العربى الذى أخذ به نفسه . وهى كلمة حق كما قلنا ، ولهذا يبدؤها بقوله : « إن فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة ! »

وذلك بأنه قد اجتمع للعرب من الأخلاق الأصيلة التى صدرت عن طباعهم ، وجرت فى دمائهم ، ما رفعهم على غيرهم من الأمم ، وما كان موضع تمدحهم وفخرهم وشرفهم ، وما صاروا به — بعد أن هدوا إلى الإسلام — خير أمة أخرجت للناس .

وقد توارث العرب هذه الأخلاق جيلا عن جيل ، من الآباء إلى الأبناء والأحفاد ، حتى جاءت سجية فيهم ، وأصبح سلوكهم ينبعث عنها

دون مشقة أو تكلف أو جهد ؛ إذ كانت تتفق وفطرتهم السليمة ، كما كانت راسخة فى نفوسهم التى لم تلوثها المدنية والحضارة الخادعة .

ونعرض بعد هذا ، إلى هذه الأخلاق التى كانوا يحرصون عليها ، ويتواصون بها ، ويرون بحق أنها سبيل إلى السؤدد والمجد ، وذلك على سبيل المثال ، لا الحصر والاستقصاء ، وبإيجاز يدل على المقصود ، ويغنى عن الإسهاب والإطناب .

المروءة :

لعل هذه الكلمة الجامعة تعبر عما سماه فلاسفة الأخلاق « المثل الأعلى » ، وهى خلق جميل كريم ، عرفه العرب فى الجاهلية وأقره الإسلام حين أشرق نوره عليهم ، فهو خلق عربى إسلامى أصيل .

ومن معانى « المروءة » فى اللغة العربية كمال الرجولة ، والإنسانية ، كما يذكر صاحب لسان العرب ، وكانوا يقولون : لا دين إلا بمروءة ، وقال محمد بن عمران التيمى : ما شىء أشد حملا على من المروءة ، قيل : وأى شىء المروءة ؟ قال : لا نعمل شيئا فى السر نستحى منه فى العلانية .

هذا ، وتقوم المروءة قبل كل شىء ، على الشجاعة والكرم ، وهما جماع الفضائل فى رأيهم ، ومناط الحمد والفخر عندهم . وذلك بأن حياة العرب غير المستقرة ، والتى كانوا يتقلبون فيها بين خشونة العيش ولينه ، كانت تجعلهم يقدرون الشجاعة والكرم تقديراً خاصاً ؛ إذ كانا أهم وسائل الحياة والدفاع عن كيانهم وأحسابهم ، وبهما يكون المجد والسؤدد وحسن الذكر .

وتقوم المروءة بعد ذلك على صفات وأخلاق أخرى ؛ مثل الحلم ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء ، وإغاثة الملهوف ، والغيرة ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف ، واصطناع المعروف إلى أهله ، والتواضع ، والعفة .

ومتى اجتمعت هذه السجايا فى رجل ، كان كاملا وتم سؤدده ، وصار سيداً فى قومه ، وسار ذكره .

وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : السيد : الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، البار بمن يعاشر . وقال عدى بن حاتم : السيد : الذليل (أى المتواضع) فى نفسه ، الأحمق (يريد الكريم) فى ماله ، المطرح لحقده ، المعنى بأمر عامته .

وسئل خالد بن صفوان عن الأحنف : بم ساد ؟ فقال : بفضل سلطانه على نفسه . وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ فقال : بكف الأذى ، وبذل الندى ، ونصر المولى .

وهكذا كان تقدير العرب للمروءة ، وكانوا يعتبرونها من أمهات الفضائل التى تجعل من يتصف بها سيداً ورجلا كاملا فى سجاياه وأخلاقه . وهى صفة لا يزال العربى حتى اليوم يقدرها حق قدرها ، كما عرف لها الإسلام منزلتها وعظيم خطرها .

الشجاعة :

الشجاعة هى الإقدام على المكروه ، وعدم الاكتراث بالحياة والموت ،

فى سبيل الدفاع عن النفس والوطن ، أو العرض والشرف ، وقد أخذ العرب من هذا الخلق بأوفر حظ ، وبلغوا فيه الغاية والكمال ، حتى ذهبوا فى ذلك مثلا للأولين والآخرين .

وكانوا لاعتبارهم الشجاعة من أمهات الفضائل ، يجدون من الذم أن يموت المرء حتف أنفه ، ويتمدحون بالموت طعناً بالرماح وتحت ظلال السيوف ؛ وفى هذا يقول قائلهم :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيـــل
تسيل على حد الظبات نفوسنا وليس على غير الظبات تسيل [1]

ذلك بأن من الطباع العربية الأصيلة ، سرعة الانفعال والإقدام على المكاره فى غير حساب طويل للعواقب ، وبخاصة أهل البوادى . فترى الواحد منهم ساكناً مطمئناً حتى يسمع كلمة تدعوه إلى النصرة ، أويحدث أن يرى أنه ينال من شرفه ، فإذا هو يندفع إلى القتال ، دون حاجة إلى عوامل أخرى تهيجه إلى ذلك ، كشأن ذوى الطبع البليد والدم البارد . وحينئذ تندفع قبيلته وقومه دون تثبت حتى يعرفوا الأمر على حقيقته ، وهم يصدرون فى هذا عما توارثوه ، وجرى منهم مجرى الدم ، من الحفاظ على الشرف ، وبعد الهمة وجميل الطبع ، وطلب الحمد والمجد .

ولعل من العوامل التى تنأى بالإنسان عن الشجاعة ، وتدفع به إلى نقيضها وهو الجبن ، الإقامة فى الحضر ، والتنعم بالعيش الرغد والحياة

---

(١) الظبات : جمع ظبة ، والمراد بها هنا السيوف .

الطيبة ، ولكن العرب كانوا أبعد الأمم عن ذلك كله : إذ كان أغلبهم يفضل العيش فى البوادى ، فكانت الشجاعة والإقدام على المهالك ، والازدراء بالحياة التى تتعارض وعلو الحسب والشرف ، طبيعة وسجية أصيلة فيهم ، بذلك يشهد التاريخ ودواوين أشعارهم .

هذا ، ولا نريد هنا أن نذكر بعض من صاروا مثلا رائعة فى الشجاعة وخلدت أسماءهم وأفعالهم وأخبارهم كتب الشعر والأدب والتاريخ ، وحسبنا أن نشير لمن يريد أن يعرف شيئاً من ذلك إلى هذه الكتب : « عيون الأخبار » لابن قتيبة الدينورى ، « العقد الفريد » لابن عبد ربه « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكرى الألوسى .

الحلم والغضب :

وإذا كانت الشجاعة كما عرفنا من الأخلاق الغالبة على العرب ، فإنه من الطبيعى لهذا أن يكون خلق الحلم نادراً فيهم ، اللهم إلا فى ساداتهم وذوى الأسنان العالية منهم ، ولهذا كان الذين عرفوا بالحلم واشتهروا به منهم قليلين ، على أنه كان للإسلام — كما سنعرف فيما بعد — أثر قوى فى شيوع هذا الخلق الجميل بينهم .

ومن العرب الذين عرفوا بالحلم واشتهروا به ، الأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم المنقرى ، ويذكر صاحب عيون الأخبار أنه قيل للأحنف ابن قيس : ما أحلمك ! قال : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقرى .

بينما هو قاعد بفنائه محتب بكسائه ، أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف ، وقيل له : هذا إبنك قتله ابن أخيك ، فوالله ما حل حبوته حتى فرغ

من كلامه ، ثم التفت إلى ابن له فى المجلس فقال له : قم فأطلق ابن عمك ، ووار أخاك ، واحمل إلى أمه مائة ناقة من الإبل فإنها غريبة ، ثم أنشأ فى هذا شعراً .

وأقبل على القاتل فقال : قتلت قرابتك ، وقطعت رحمك ، وأقللت عددك ، لا يبعد الله غيرك .

وشتم رجل الأحنف وجعل يتبعه حتى بلغ حيه ، فقال له : ياهذا ، إن كان بقى فى نفسك شىء فهاته وانصرف لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره . ولم يكن ذلك عن ضعف طبعاً ، ولكن هو خلق الحلم الذى أخذ نفسه به حتى صار سجية فيه .

وذلك ما صرح بن الأحنف نفسه حين قال له رجل : علمنى الحلم يا أبا بحر ، فقال : هو الذل يا بن أخى ، أفتصبر عليه !

وإذن ، ليس الحلم ضعة ولا ذلة ، بل هو ضبط النفس أن يستفزها جاهل .

ولم يكن العرب ، وكذلك الإسلام ، يحمدون الحلم فى كل موطن وحال، ومع جميع الناس ، وإن أثنى الإسلام كثيراً على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .

إنه خلق حسن وجميل ، ولكن له مواطنه ، كما للصبر على ما يسوء مواطنه كذلك ، وفى غير هذا يكون الانتصار خيراً ، رداً لعادية الجهول الظلوم الذى لا يصلحه الحلم ، بل يزيده جهلا وظلماً ؛ وفى هذا يقول النابغة الجعدى :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ويقول صاحب العقد الفريد إن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين سمع هذا البيت : لا يفضض الله فاك ، فعاش الشاعر مائة وثلاثين سنة لم تنفض له ثنية . وكان يقال : آفة الحلم الضعف .

ولذلك نجد أنه مما أثر عن العرب قولهم : لا يظهر الحلم إلا مع الانتصار ، كما لا يظهر العفو إلا مع الإقتدار . كما كانوا يقولون . لا حلم لمن لا سفيه له ، وما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . ومن المفهوم أن المراد بالسفهاء هنا هم الذين يردون عادية المعتدى الأثيم .

ولعل مما يفهمنا متى ينبغى أن يكون الإنسان حليما ، ومتى ينبغى أن يأخذ بحقه ممن يجهل عليه ، هذا الخبر الذى رواه ابن قتيبة فى كتاب « عيون الأخبار » ! إذ يقول :

أغضب زيد بن جبلة الأحنف ، فوثب إليه فأخذ بعمامته وتناصبا ، فقيل للأحنف : أين الحلم اليوم ! فقال : لو كان مثلى لم أفعل هذا به .

الكرم :

وكان العرب وما يزالون أبد الدهر ، معروفين بالكرم ، فهم يتواصون به ، ويرونه من أشرف الأخلاق التى ينال بها المجد والسؤدد وحسن الذكر فى الأولين والآخرين .

وفى هذا يقول أكثم بن صيفى ، وهو من حكمائهم المعروفين ، فى وصاة له : ذللوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها إلى المحامد ، وعلموها المكارم ، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم ، وصلوا من رغب إليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر .

ويقول ذو الإصبع العدوانى فى وصية له لولده أسيد: واسمح بمالك . واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً .

ومن الذين سار كرمهم مسير الريح حاتم الطائى، وضرب بكرمه وجوده المثل فيقال : أجود من حاتم . وكان من شعراء الجاهلية ، وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم إنه أراد أمراً فأدركه ؛ يعنى الذكر الحسن ، كما قال عنه إنه كان يحب مكارم الأخلاق .

ويظهر أنه كان من عادة الذين صار لهم الكرم سجية وخلقاً أن يوقدوا النار لتدل الضيفان عليهم وتدفعهم إلى منازلهم فى الليل ، ولهذا نجد كريماً آخر يقول فى الوصاة بكلب له :

أوصيك خيراً به ، فإن له خلائقاً لا أزال أحمدها
يدل ضيفى على فى غسق الليل إذا النار نام موقدها

ولم يكن العربى يبتغى عن كرمه جزاء ولا شكورا ، ويكفيه أنه يصدر فى ذلك عن طبعه الكريم فيجد لبذل النوال لذة وسروراً ، وينال الذكر الحسن بين معتفيه وعارفيه ومن يسمعون به .

قيل لقيس بن سعد وكان ممن عرفوا بهذه الفضيلة . هل رأيت قط من هو أسخى منك ؟ فقال : نزلنا البادية على امرأة ، ولما حضر زوجها قالت له : إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها وقال : شأنكم ، فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها وقال : شأنكم ، فقلت ما أكلنا من التى

نحرتها البارحة إلا اليسير ، فقال : إنى لا أطعم أضيافى الغاب(١) . فأقمنا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل ذلك .

فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائة دينار ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا منه ، ومضينا . فلما متع النهار(٢) إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونا ثمن القرى(٣) ثم إنه لحقنا وقال : لتأخذنها وإلا طعنتكم برمحى ! فأخذناها وانصرف .

هذا ، ولما جاء الإسلام كان عاملا آخر قوياً فى تأكيد هذا الخلق والأمر به ، وذلك ابتغاء رضوان الله وحسن مثوبته ، وسيجىء لهذا تفصيل فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى .

الوفاء :

هذا الخلق من أخلاق العرب الأصيلة ، وعرف به كثيرون منهم ، وأكده القرآن فى كثير من آياته ، وحث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى غير قليل من أحاديثه ، وجعل نقيضه من علامات النفاق وخصاله .

ولا عجب فى هذا ، فالعرب أحفظ الأمم للعهد ، وأوفاهم بالوعد ، ويرون الغدر من أكبر الخصال السيئة التى يذم بها الإنسان ، والإخلاف من أقبح العيوب التى يتلاومون عليها وتزرى بمن تعلق به . لا جرم أن يسجل

---

(١) الغاب : الطعام الذى تمضى علية ليلة .

(٢) متع : ارتفع

(٣) القرى : الضيافة .

التاريخ أخبار كثير من العرب الذى عرفوا بالوفاء ، وأن لا يزال الناس يلهجون بذكرهم حتى اليوم .

هذا ، وقد بلغ الأمر فى هذا الخلق الكريم ، أن بعضهم كان يغلو فى الوفاء للجار حتى ليكون مقدما على الأبناء والأخوة ، وفى هذا ماجاء من أن رجلا من بنى عامر بن كلاب قدم هو وأخ له اليمامة ، ودخل فى جوار عمير بن أبى سلمى ، فحدث أن أخا لعمير يسمى قريناً عدا على الجار فقتله ، وكان عمير غائباً ، فذهب أخو المقتول إلى قبر سلمى ، والد عمير وقرين ، فعاذ به .

ولما رجع عمير أخذ أخاه ليقتل وفاء بحق الجار ، فحاول البعض استنقاذ قرين بإضعاف الدية لأخى القتيل ، ولكنه أبى ، فما كان من عمير إلا أنه خرج بأخيه حتى قطع وادى اليمامة ، فربطه إلى نخلة وقال لأخى القتيل : أما إذا أبيت أن تعفو أو تأخذ الدية ، فأمهل حتى أقطع الوادى راجعاً ، ثم شأنك بأخى ولا أرينك ، فقتله الكلابى ، وفى ذلك يقول عمير .

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

كما قالت أمه :

يعد معاذراً لاعذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما[1]

وهكذا كان شأن الوفاء عند العرب ، كان عندهم بمثابة الدين يتمسكون

---

(١) أى فعل ما يستحق عليه اللوم .

به ، ويستهينون فى سبيله بكل شىء حتى قتل الأبناء والأخوة . وإن أمة هذا بعض ماتحرص عليه من أخلاق ، ثم ضمت إلى ذلك أن أصبح الإسلام دينها ، لهى حقاً خير الأمم التى عرفها العالم .

* * *

تلك هى أمهات الفضائل وجماع الأخلاق ، عرفها العرب فى جاهليتهم وأقرها الإسلام بعد أن اتخذوه لهم ديناً ، ثم زاد عليها فضائل أخرى سنعرضها فيما بعد ، فصارت الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس حقاً .

ومع ذلك كله ، فقد كان للعرب — حتى قبل الإسلام — فضائل أخرى كانوا يتواصون بها فيما أثر عنهم من شعر وحكمة ، وأخذ بعضهم بها أنفسهم ، وإن لم تكن عامة فيهم جميعاً .

فمن ذلك خلق التواضع ، وفيه يقول عامر العدوانى فى كلمة حكيمة له وجهها إلى قومه : إنى لم أكن حكيما حتى صحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم . ويذكر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه عيون الأخبار . أنه كان يقال : اسمان متضادان بمعنى واحد ، التواضع والشرف .

وقد زاد الإسلام هذا الخلق الذى يثمر المحبة ورضا الله قوة ، وذلك بما جاء عنه فى القرآن ، وبالقدوة الصالحة التى ضربها فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الخلفاء الراشدون وكثير لا يحصون من رجالات الإسلام .

وفى ذلك يقول عبد الملك بن مروان : أفضل الرجال من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة ؛ وبذلك جعل هذا

الخلق قسيما فى الشرف للعدل والنصفة . كما قال أيضاً : ثلاثة من أحسن شىء ، جود لغير ثواب ، ونصب لغير دنيا ، وتواضع لغير ذل .

وكانوا يتمدحون أيضاً بالحياء وبالعفة ، حتى عفة النظر ، وفى ذلك يقول حاتم الطائى :

وماتشتكينى جارتى ، غير أنها إذا غاب عنها بعلها لاأزورها
سيبلغها خيرى ويرجع بعلها إليها ولم تسدل على ستورها

كما يقول شاعر آخر :

وإنى لعف عن فكاهة جارتى وإنى لمشنوء إلى اغتيابها
إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها زءوراً ولم تأنس إلى كلابها
ولم أك طلابا أحاديث سرها ولا عالماً من أى حوك ثيابها

* * *

وبعد ! فإنه إذا تعمقنا تاريخ العرب وتراثهم الأدبى ، فى هذه الفترة الطويلة من حياتهم ، نرى أنهم عرفوا بفطراتهم السليمة ألواناً من التفكير الأخلاقى ، كما عرفوا كثيراً عن النفس الإنسانية وطبائعها ، وهدوا إلى كثير من مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل التى كانوا يتواصون بها ويفخرون بتوارثها .

إننا نرجح — كما ذكرنا فى كتاب ظهر لنا منذ سنين — أن يكون منهم من عرف الصلة الوثيقة بين العلم والفضيلة ، أو على الأقل من حام حول هذه الفكرة التى هى من أسس علم الأخلاق : فمن عرف الخير فى عمل كانت هذه المعرفة من بواعث إقدامه عليه .

إنى أرجح هذا جداً ، وقد يرجحه معى كثيرون ، حين أسمع زهير ابن أبى سلمى يقول :

ومن يوف لايذمم،ومن يهد قلبه   إلى مطمئن البر لا يتجمجم

فإنى أفهم منه أن الإنسان متى عرف يقيناً أن هذا العمل خير ، واطمأن قلبه إلى ذلك ، لم يتردد فى الإتيان به والابتعاد عن نقيضه .

وهذا ما ذهب إليه « سقراط » مؤسس علم الأخلاق فى اليونان ، وذلك حين أكد أن الفضيلة هى العلم أو المعرفة ؛ وإن كان الشاعر العربى لم يفلسف هذه الفكرة ، ولم يأت بتطبيقات لها مثل فيلسوف اليونان .

أما الفكرة التى تقول بأن الفضيلة وسط بين طرفين كلاهما مذموم ، وهى التى قامت عليها أيضاً فلسفة الأخلاق فيما بعد ، فقد عرفها العرب بيقين قبل اتصالهم بالفلسفة ، وبخاصة أن الإسلام جاء بها فى القرآن نفسه .

وقد عقد ابن قتيبة الدينورى ، فى كتاب عيون الأخبار ، وهو كتاب فى الأدب لا فى الفلسفة كما هو معروف ، فصلا عن التوسط فى الأشياء وما يكره من التقصير فيها والغلو، وانتهى بتقرير أن خير الأمور الوسط ، وذلك كما يتبين من هذه الأمثال الآتية .

ففى التوسط فى الدين ، يقول الرسول العربى الحكيم : « إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » . وكذلك يقول : « إن أفضل العمل أدومه وإن قل » ؛ ويقول الإمام

على رضى عنه : خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يرجع إليهم الغالى ويلحق بهم التالى .

وكان يقال : دين الله بين المقصر والغالى ، ويقول أحدهم لابنه : يا بنى ، الحسنة بين السيئتين ، يعنى بين الإفراط والتقصير ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة . (١)

كما كان يقال أيضاً : طالب العلم وعامل البر (والبر اسم لكل خصال الخير) كآكل الطعام ؛ إن أخذ منه قوتاً عصمه ، وإن أسرف فى الأخذ منه بشمه(٢) ، وربما كانت فيه منيته ؛ وكآخذ الأدوية التى قصدها شفاء ، ومجاوزة القدر فيها السم المميت .

وفى التوسط فى الحلم ومداراة الناس ، نجد من أمثال العرب قولهم : لا تكن حلواً فتسترط (٣) ، ولا مراً فتلفظ . ويقول النابغة الجعدى ، كما ذكرنا من قبل :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ويقول آخر :

ولا خير فى عرض امرىء لا يصونه ... ولا خير فى حلم امرىء ذل جانبه

وقال أكثم بن صيفى : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ،

---

(١) الحقحقة : أسرع السير وأتعبه للظهر .

(٢) البشمة بفتح الاول والثانى : التخمة

(٣) تسترط : تبتلع .

وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء . يريد أن يقول إن الخير فى عشرة الناس أن يكون الإنسان وسطاً ، فلا يعتزلهم ، ولا يفرط فى الاتصال بهم :

وأخيراً ، يقول الله عز وجل فى وصف عباده المؤمنين : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ؛ أى أن الخير فى الإنفاق هو الوسط بين الإسراف والتقتير .

ومن أمثال العرب فى هذا : إذا جد السؤال جد المنع . كما كان يقال: لا تصن كثيراً عن حق ، ولا تنفق قليلا فى باطل . ويقول الشاعر :

إلا أكن كل الجـواد فإننى على الزاد فى الظلماء غير لئيم

هذا ، وقد آن لنا بعد ذلك أن ننتقل إلى الفصل الثانى ، وقد خصصناه لأخلاق أمر بها الإسلام ، ولأخرى نهى عنها وحرمها .

الفصل الثاني

في الأخلاق في الإسلام

إذا كان الإسلام قد قلب تماماً ما كان عليه العرب فى جاهليتهم من العقائد ، لأنه وجدها كلها باطلة وضالة عن الحق ، فإنه لم يفعل ذلك فى ناحية الأخلاق ، وكان هذا أمراً طبيعياً .

إنه لم يجىء ليهدم كل شىء فى ناحية الأخلاق ، وليستبدل بكل عادة وخلق غيره وإن كان صالحاً للبقاء . ولذلك نراه يستبقى ماوجده خيراً من الأخلاق التى درج عليها العرب فى حياتهم ، وأخذوا أنفسهم بها ، فأمر بها وحث عليها ، ووعد من يسير عليها حسنى العاقبة وخير الجزاء فى الدنيا والأخرى .

ولم يطرح ، فى ناحية العادات والتقاليد والأخلاق ، إلا ما كان منها سيئاً وقبيحاً تنفر منه الطباع السليمة ، ولا تقوم عليه حياة الأمة التى تحرص على أن تأخذ مكانها الجدير بها ، وعلى أن تكون مثلا أعلى لغيرها .

ومن أجل ذلك كان العرب على استعداد كبير لقبول ماجاء به القرآن من هداية وإرشاد وأخلاق بها صلاح الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة ، وذلك بعد أن استقر الإيمان بالله ودار الجزاء فى قلوبهم . فكان الواحد

منهم ربما سمع الآية أو الآيتين من القرآن فيكتفى بما سمع ويعمل به ؛ لأن الإسلام أزال ما كان على عقله وقلبه من غطاء ، وكشف له عن فطرته السليمة التى فيها استعداد لقبول الحق والعمل بالخير .

هذا صعصعة بن معاوية ، كما يروى الإمام أحمد وغيره ، أتى الرسول صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه من سورة الزلزلة قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، فقال : حسبى ، لا أبالى أن أسمع غيرها !

ويروى زيد بن أسلم رضى الله عنه ، أن النبى صلوات الله وسلامه عليه دفع أعرابياً آخر إلى رجل يعلمه ، فأخذ فى تعليمه شيئاً من القرآن حتى بلغ هاتين الآيتين فقال : حسبى ! فذكر الرجل الموكل بتعليمه هذا للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « دعه فقد فقه » .

* * *

وبعد : ما هى أخلاق الإسلام كما تؤخذ من القرآن الكريم ، وسنة الرسول العظيم ؟ وكما جرت على ألسنة كثير من رجاله حكما وأقوالا مأثورة بعد أن أشربت قلوبهم الإيمان به ، وتقمصوا مصدريه الخالدين ، هذان المصدران اللذان فيهما الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر

لقد وصف الله رسوله المصطفى بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وأمره بالرفق بأمته ، وبأن يكون رحيما بهم وشفيقاً عليهم . وتصفه السيدة عائشة رضى عنها بأن خلقه كان القرآن .

ومن أجل ذلك يقول ابن عبدربه فى كتابه العقد الفريد بأن الله نظم

له مكارم الأخلاق فى ثلاث كلمات فقال : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

ففى أخذه بالعفو ، صلة من قطعه ، وصفح عمن ظلمه ؛ وفى الأمر بالمعروف ، تقوى الله (وهى منبع كل خير) ، وغض الطرف عن المحارم ، وصون اللسان عن الكذب ؛ وفى الإعراض عن الجاهلين ، تنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج .

وقد أخذ النبي بهذه الآداب فكان مثالا أعلى لها ، وعمل على أن تكون آداب أمته وأخلاقها التى تعتبر شريعة لها فى سلوكها أفراداً وجماعات . ولهذا كان من حديثه الذى روى عنه أنه قال :

« أوصانى ربي بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً » .

ذلك ماقاله صاحب العقد الفريد ، على أننا نرى أن القرآن جمع الأمر بالكريم من الأخلاق ، والنهى عن القبيح والسيء منها ، فى هذه الآية من سورة النحل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

يروى الإمام القرطبي فى كتابه الجامع لأحكام القرآن ، فى تفسيره لهذه الآية ، عن عثمان بن مظعون أنه لما نزلت هذه الآية قرأها على علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فتعجب وقال : اتبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله

أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق .

وجاء فى الآثار أن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك يزعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، فقال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق .

وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يتمثل ، ولشر يجتنب .

وإذ كنا نرى من هذه النقول أن الله العليم الحكيم جمع فى هذه الآية الأمر بكل خلق حميد ، والنهى عن كل خلق قبيح ، فما هو تفسير كل من العدل والإحسان والفحشاء والمنكر والبغى ؟

جاء فى تفسير القرطبي أن العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع ، وترك الظلم ، والإنصاف . والإحسان هو فعل كل ما هو مندوب إليه ، ويدخل فى هذا وذاك كل خلق كريم أمر به الله وندب إليه وحث عليه ، وبه يطمئن الضمير ويرضى .

وذكر ابن العربى أن العدل ضد الظلم والجور ، وحقيقته التوسط بين أمرين كلاهما قبيح مذموم ، وهو إما بين الإنسان وربه ، أو بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين غيره من الناس . فالعدل بين المرء وخالقه ، هو إيثار حق الله على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على ماهو له ، وامتثال ما أمر به الله وفعله . والعدل بين المرء ونفسه ، هو منعها عما فيه ضررها وهلاكها ، بالابتعاد عما يدعو إليه الهوى والشهوات الجامحة ، ولزوم القناعة فى كل حال .

والعدل بين الإنسان وغيره ، يكون ببذل التضحية ، وترك الخيانة في الكثير أو القليل . والبعد عن إساءة أحدهم بقول أو فعل ، في سر أو علن ، والصبر على مايصيبه منهم ، وإنصافهم من نفسه .

والمراد بإيتاء ذى القربى ، هو عون المحتاج منهم بإعطائهم حقوقهم في المال الذى أنعم الله به عليه ، وكذلك كل محتاج للعون من غيره ، لأن الناس جميعاً أولاد لأب واحد هو سيدنا آدم عليه السلام ، فالقرابة العامة تشملهم جميعاً .

أما ما نهى الله عنه فى الآية من الفحشاء والمنكر والبغى ، فالمراد به كل قبيح من قول أو فعل ، وذلك يعم كل الرذائل والمعاصى والأفعال القبيحة على اختلاف أنواعها ، مثل الظلم والكبر والحقد والحسد والتعدى على الأنفس والأموال والأعراض .

واللغة العربية توافق كلام مفسرى القرآن الذى أتينا بخلاصته فى بيان معانى كلمات . العدل والإحسان ، والفحشاء والمنكر والبغى .

فصاحب « لسان العرب » يذكر من معانى كلمة « العدل » أنه مارأته النفوس مستقيما ، وهو ضد الجور ، ومنه الاعتدال وهو التوسط بين حالين أو أمرين كلاهما قبيح . ومن ثم ، يقال : جسم معتدل ، أى هو بين الطول والقصر ؛ وكل ماتناسب فقد اعتدل[1] .

---

(١) ومثل خلق الكرم ، فهو التوسط فى الانفاق بين الاسراف والبخل ، وخلق الشجاعة ، فهو التوسط بين التهور والجبن .

ويذكر أن الحسن ضد القبح ونقيضه ، والإحسان هو ضد الإساءة على اختلاف أنواعها من قول أو فعل ؛ وهو أيضاً الإخلاص فى العمل والإتيان به على أتم وجه ، فلا يكون فيه نفاق أو رياء أو طلب حسن الذكر بين الناس .

و « الفحشاء » والفاحشة ، كما يقول ، هى القبيح من القول والفعل ، فيدخل فيها كل عادة أو خلق مرذول ، والفاحش هو السيىء الخلق .

وكذلك « المنكر » ، فهو خلاف المعروف ، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه . و « البغى » هو التعدى والعدول عن الحق ، ومن معانيه أيضاً الكبر والظلم والفساد .

وإذن ، فإذا أمر القرآن بالعدل والإحسان ، فقد أمر بكل فضيلة وخلق حسن جميل ؛ وإذا نهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فقد نهى عن كل رذيلة وخلق قبيح ، وبذلك تكون تلك الآية الكريمة التى ذكرها قد جمعت الأخلاق كلها .

هذا ، وينبغى قبل الدخول فى تفصيل القول فى الأخلاق التى أمر بها القرآن وسنة رسول الله أن نشير إلى أمرين يجب أن ينظر إليهما كل من يبحث الأخلاق فى الإسلام .

الأول ، هو أن الإسلام منذ أول ظهوره قد استحدث باعثاً آخر يجب أن يكون هو الدافع إلى مكارم الأخلاق ، غير ما كان عليه الأمر عند العرب قبله .

فقد عرفنا بما ذكرناه عند العرب قبل الإسلام أنهم كانوا ، فى الغالب من أمرهم ، إن لم نقل فى كل حالاتهم ، يفعلون الخير اتقاء للذم ، وطلباً للثناء ، وحفاظاً على الحسب والمجد ، وطلباً لحسن الأحدوثة والذكر .

فهذا حاتم الطائى يؤكد كرمه ويقول : « أخاف مذمات الأحاديث من بعدى » ، ويقول :

لقد كنت أختار القرى طاوى الحشا   محافظة من أن يقال لئيم

وهذا غيره يقول : ونتقى بآمن ما لنا أحسابنا ، ويقول آخر : وكل كريم يتقى الذم بالقرى . . .

ولكن الإسلام نظر إلى الباعث على الأخلاق نظرة أخرى ، وذلك حين ألغى التفاخر بالاجداد والأحساب ، وجعل مناط الفضل التدين وعمل الخير لأنه خير ابتغاء وجه الله ورضاه . وذلك ظاهر من كثير من الآيات والأحاديث النبوية .

ومن هذا قوله تعالى . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وقوله فى تفضل سيدنا أبى بكر على من أساء إليه . « وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

والثانى ، أن بعض ما يحسب على العرب من الرذائل والأخلاق والعادات السيئة لم يكن إلا مبالغة وإفراطا فى الخير بزعمهم ، أو نشأ عن سوء تقدير لمعنى الخير فى رأيهم .

فالإسراف فى العطاء ، مثلا ، ليس إلا مبالغة وغلواً فى الكرم ، ووأد البنات ليس إلا ذهابا إلى أقصى الحدود فى الغيرة على العرض ، والتهور الذى كان من طباع الكثير منهم ليس إلا إفراطا فى الشجاعة ، وقتل الأبرياء أحياناً ما هو إلا غلو فى الأخذ بالثأر وتقدير الحسب والاعتداد به ، وهكذا الأمر فى عادات سيئة أخرى .

فكان من الإسلام أن أخذ هذه النفوس المملوءة بحب الفضيلة إلى درجة الإفراط فيها — إلى الاعتدال والتوسط فى الأمر ، وكان من اليسير على العرب، وحالهم كما وصفنا ، أن يتقبلوا ما جاء من أخلاق بقبول حسن . فإن النزول عن الإفراط فى الكرم مثلا إلى الاعتدال أيسر على النفس من الصعود من البخل إلى الجود باعتدال ، وهكذا الأمر فى الشجاعة والغيرة على العرض وغيره من العادات والتقاليد والأخلاق الأخرى .

* * *

وعلينا بعد بيان هذين الأمرين ، أن نأخذ بشىء من التفصيل فى بيان أمهات الأخلاق الكريمة التى أمر بها الإسلام ووصى بها وحث عليها ، وفى بيان بعض الأخلاق الأخرى التى نهى عنها وحذر منها . ومن الخير أن نمهد لذلك كله بذكر هذه الآيات من القرآن الكريم :

١ — « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

٢ — « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

٣ — « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » .

٤ — « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

٥ — وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » .

٦ — « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » .

٧ — « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » .

٨ — «ربكم أعلم بما فى نفوسكم، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً » .

٩ — « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً » .

١٠ — « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسوراً » .

١١ — « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » .

١٢ — « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ؛ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » .

١٣ — « ولا تقربوا الزنا ؛ إنه كان فاحشة وساء سبيلا » .

١٤ — « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » .

١٥ — « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » .

١٦ — « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

١٧ — « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

٢ — « ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

٢٢ — « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » .

٢٣ — يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » .

٢٤ — « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » .

٢٥ — « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

٢٦ — « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

٢٧ — « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .

٢٨ — يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » .

٢٩ — « فإن لم تجدوا فيها أحداً فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم» .

٣٠ — ولا تصعر خدك للناس[1]، ولا تمش فى الأرض مرحاً[2] : إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك : إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

٣١ — «فإن أمن بعضكم بعضاً ، فليؤد الذى ائتمن أمانته ، وليتق الله ربه » .

٣٢ — « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة : ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

٣٣ — خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

٣٤ — يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

---

(١) أى لا تعرض عنهم تكبرا عليهم .

(٢) أى متبخترا متكبرا .

تلك آيات من سور مختلفة من القرآن ، وهناك كثير غيرها ، وكلها تأمر بالخير فى مختلف ضروبه ، وتنهى عن الشر فى مختلف ضروبه . وهى تتناول — كما رأينا — الأخلاق المثالية للفرد والمجتمع ، وتضع القواعد والأصول التى ينبغى أن يأخذ الناس جميعاً أنفسهم بها فى كل زمان ومكان .

* * *

وعلينا الآن أن نعرض لأمهات الأخلاق التى وصى بها الإسلام وحث عليها ، وذلك على نحو وسط بين التفصيل والإيجاز .

العدل

عرفنا أنه كان من طبائع العرب ، العصبية للقبيلة والحليف ، وسرعة الانفعال والإقدام على المكاره إذا دعا إلى ذلك داع وإن لم يكن ذا خطر؛ دون عناية بتحقيق هذه الدواعى وتقديرها ، ودون اكتراث كبير برعاية العدل والجزاء بالمثل كما ينبغى .

ولهذا رأينا منهم من يقول فى قصيدة شهيرة له :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما لا يزال يدوى فى أسماعنا قول الآخر :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم من يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

ومن ثم ، قد أثرت عنهم هذه القولة التى ظلوا يعملون بها حتى أهل الإسلام ، وهى : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً !

فلما جاء الدين الحق الذى ختم الله به رسالاته إلى البشرية ، لم يعب عليهم أنفتهم من أن يقع على أحدهم ضيم ، ولا نجدتهم وشجاعتهم ، ولكنه مع هذا حرم عليهم الظلم والبغى والاعتداء بغير حق ، أو رد الاعتداء بأكثر من مثله ؛ وإلا ، كانت فتنة وفساد كبير يضر بالمجتمع كله .

وفى الحق ، إن الإسلام أقام المجتمع على دعائم قوية ثابتة لا يستقيم أى مجتمع بدونها ، ومن هذه الدعائم العدل بين الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

وهو عدل مثالى لا نراه فى دين آخر ، فإنه ما ينبغى أن يتأثر بالقرابة أو الصداقة أو الجاه والسلطان ، كما لا يجوز أن يتأثر بالبغض أو العداوة ، أو بسبب آخر غير ذلك كله .

ويكفى فى بيان ذلك أن نذكر هذه الآية من سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط [1] ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

كما نذكر هذه الآية من سورة المائدة ، فإنها مكملة ومؤكدة لمعنى الآية السابقة ، وهى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن [2] قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى » .

---

(١) القسط : العدل .

(٢) يجرمنكم : يحملنكم ، شنآن : بغض وعداوة .

فمن هاتين الآيتين يتبين لنا أن العدل والمساواة فرض على المؤمن بالله ودينه إذا كان صادق الإيمان؛ ولهذا بدأ الله الخطاب بقوله: يا أيها الذين آمنوا .

كما يتبين أن العدل فرض بين القريب والغريب ، والغنى والفقير ، والصديق والعدو ، وأنه لا ينبغى للمؤمن أن يتبع هواه وميوله فيكون سبباً لترك العدل .

والعدل الذى جعله الله من أخلاق المؤمن ، هو إذن عدل كامل غير منقوص ، وعام شامل غير خاص بأحد من الناس ، ولا طائفة أو طبقة منهم . وهو عدل بين المرء ونفسه ، وبينه وبين غيره ، وما ينبغى الانحراف عنه ميلا مع الهوى أو لأى سبب كان من مودة أو عداوة مثلا . ولذلك نجد من القرآن التشديد فى طلبه ، والنهى عن ضده وهو الظلم ، والوعيد بالعقاب الأليم للظالمين .

وكذلك الأمر فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد عنه الكثير من الأحاديث فى تحريم الظلم وبيان سوء عاقبته فى الدنيا بالنسبة للفرد والمجتمع ، وسوء ما ينتظر الظالم من عقاب فى الدار الأخرى .

يروى الرسول الذى لا ينطق عن الهوى عن ربه تعالى أمره ، أنه قال من حديث طويل : « ياعبادى! إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته محرماً عليكم ، فلا تظالموا . . . »

وفى حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة » . ويقول : « إن الله عز وجل ، ليملى للظالم حتى إذا

أخذه لم يفلته » . ثم قرأ قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

وفى بيان ضرر الظلم بالمجتمع كله ، لا الظالم وحده ، يذكر الرسول فى حديث آخر أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده .

والعدل فى الإسلام هو العدل الشامل للناس جميعاً كما قلنا ، بلا تفرقة بين المسلم وغيره من أهل الأديان الأخرى ، ولذلك روى أبو داود فى سننه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« من ظلم معاهداً ، أو تنقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا خصمه يوم القيامة » . وكذلك جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال : « من ظلم ذمياً كنت خصمه » .

وكان من الطبيعى من أجل حرص الإسلام على العدل ، وعدم الاندفاع فى نصرة الظالم وإن كان أخاً أو قريباً أو حليفاً ، أن غير الرسول الحكيم القاعدة التى كان العرب يسيرون عليها ، وهى قولهم : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وذلك بأن فسرها تفسيراً جديداً حكيما عادلا .

فقد روى الإمام فى صحيحه أن غلاماً من المهاجرين ضرب غلاماً من الأنصار ، فقال هذا : يا للأنصار ، وقال المهاجر ؛ يا للمهاجرين !

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال دعوى الجاهلية !

فلما ذكر له ما حصل قال : « دعوها فإنها منتنة » ! أى قبيحة كريهة مؤذية. ثم قال : « ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوما ! فإن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره » !

هذا ، وفى التاريخ الصادق مثل لا يتناولها العد والإحصاء فيما كان من عدل الرسول مع أصحابه ، وعدل أصحابه بعضهم مع بعض فى حياته وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى ، وعدل رجالات العروبة والإسلام على مدى الأزمان .

ولا حاجة بنا هنا لإيراد كثير من هذه المثل الرائعة ، فلنكتف بهذا القليل منها من سيرة رجل واحد ، وهو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

١ — ذكر الذهبي فى كتابه « تاريخ الإسلام » أن عبدالله بن عمر رجع من غزوة من الغزوات وقد ابتاع من الغنيمة بأربعين ألف درهم ، فلما قدم على أبيه أنكر عليه ما فعل ؛ لأنه لعل أمير الجيش قد باع له بأرخص مما يبيع لغيره لأنه ابن أمير المؤمنين ، ولم يجد شيئاً قول ابنه له إنه اتجر كما يتجر غيره .

ثم قال له : إنى قاسم مسئول ، وإنى معطيك أكثر ماربح تاجر من قريش ، لك ربح الدرهم درهم . ودعا التجار فاشتروا ما كان معه بأربعمائة ألف ، فأعطاه ثمانين منها ودفع بالباقى إلى بيت المال ليقسمه بين الناس مع سائر الغنيمة .

٢ — وكان من عدله تسويته فى الحقوق بين الوالى ومن تحت ولايته

حتى يقتص من الخاصة للعامة من الناس ، هذا ابن لعمرو بن العاص والى مصر يضرب شاباً من الأقباط بغير حق ، فاستحضرهما عمر إلى المدينة ومعهما الأمير نفسه ، وأمر بأن يقتص المضروب من الضارب ، ثم التفت إلى الأمير وقال له : ياعمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !

٣ ـ ويروى البخارى فى صحيحه أن عمر بن الخطاب قسم ثياباً بين بعض نساء أهل المدينة ، فبقى منها ثوب جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عندك ، يريدون أم كلثوم بنت على ، فقال عمر : أم سليط أحق به (وهى من نساء الأنصار وممن بايع رسول الله) فإنها كانت تزفر (أى تحمل) القرب يوم « أحد » .

٤ ـ ولما رأى إعانة المحتاج بما يكفيه وعياله ، سوى فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين الذين يقيمون بدار الإسلام ، وكتب بهذا كتابا عاما للولاة ؛ وذلك لأن هؤلاء لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثل ما للمسلمين وما عليهم ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه .

٥ ـ ولما رأى إنشاء « ديوان العطاء » لفرض أعطيات سنوية ثابتة للمسلمين ، واستشار بمن يبدأ ، قيل له : ابدأ بنفسك فأنت الخليفة . ولكنه رأى البدء بأقارب الرسول ، ثم بآل أبى بكر ، ثم يجىء بسائر المسلمين حسب منازلهم فى السبق إلى الإسلام والجهاد فى سبيل ذلك ، ثم قال : ضعوا عمر حيث وضعه الله .

٦ — وفى هذا الديوان فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم ، فقال له عبد الله ابنه فرضت لى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة ! أى من المواقف فى الجهاد .

فقال له عمر : زدته ؛ لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله عليه السلام من أبيك !

بهذا العدل من سيدنا عمر وأمثاله ، قويت دولة العرب والإسلام ، وفتح الله لهم بلاد كسرى وقيصر ، وصاروا مثلا عليا فى الأولين والآخرين ، وكتب الله لهم النصر والحسنى وزيادة .

الأمانة

وهذا الخلق من الأخلاق التى يوجبها الإسلام ، واعتز بها العرب والمسلمون ؛ وقد أكده وحث عليه القرآن الكريم فى كثير من آياته ، وكذلك الرسول الصادق الأمين فى كثير من أحاديثه ، كما كان الرسول نفسه وصحابته فى الذروة العليا من هذا الخلق الكريم .

إن هذا الخلق الذى يأمر به القرآن الكريم فى قول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، والذى ينبه إليه القرآن ويحث عليه فى آيات أخرى كثيرة ، ليتسع حتى يحكم كل ما يكون من الإنسان من قول وفعل وتصرف وسلوك .

سواء أكان ذلك فيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين غيره من الأفراد والجماعات . كما يشمل كل العلاقات التى تكون بين

الولاة والحكام وبين من جعلهم الله تحت أيديهم ، والتي تكون بين الوالى الأعظم والأمة كلها .

وكما لا يستقيم أمر الأفراد والجماعات والأمة بدون العدل والحكم به ، كذلك لاتستقيم الأمور بدون الأمانة يتخلق بها كل من أبناء الأمة ؛ ولهذا وذاك ، أمر الله بهذين الخلقين وجمع بينهما فى آية واحدة هى التى ذكرنا صدرها .

* * *

إن من الأمانة أن يخلص الإنسان فى عبادته لله ، من صلاة وصيام وزكاة وحج إلى بيته المحرم ؛ فتكون هذه الأعمال خالصة له وحده ، ولا يشوبها نفاق أو رياء .

وإن من الأمانة أن يحسن الإنسان الانتفاع بوقته ، فلا ينفقه إلا فيما يفيد ويرضى الله والوطن ؛ وبصحته وسائر ما وهب له الله من قوى الإحساس والعقل والفكر ، فلا يصرف شيئاً من ذلك كله إلا فى الخير وفيما يعود عليه وعلى غيره بالمصلحة الحقة والفائدة الصحيحة .

ومن الأمانة أن يعمل كل من الزارع والصانع والتاجر جهده فى إجادة عمله ، حتى يكون منه الخير المرتقب لنفسه وبلده وأمته ؛ فإن قصر فى ذلك كان خائناً لنفسه وأمته ، ولم يكن مواطناً صالحاً حريا بشرف الانتساب إلى وطنه ، ولا بأمته التى هى خير أمة أخرجت للناس .

ومن الأمانة أن يخصص التلميذ وطالب العلم والمعرفة ، على اختلاف فروعها ، وقته للدرس والتعلم ؛ حتى تتم دراسته كما ينبغى ، ويغدو رجلا يسهم فى مجد الوطن .

ومن الأمانة ألا يدخر المعلم والأستاذ وسعاً فى تثقيف أبنائنا الذين جعلهم الله والوطن وديعة بين يديه ، وأن يرشدهم إلى النهج المستقيم ، ويحملهم بقدوته الصالحة على عمل الخير فى كل حال ، ما استطاعوا إليه سبيلا .

ومن الأمانة أن يحس الموظف مثلا وهو جالس إلى مكتبه ، بما عليه من مسئولية وتبعة بالنسبة لإخوانه المواطنين وللدولة والأمة جميعاً ، وبذلك يخلص فى عمله ويتفانى فيه .

ومن الأمانة أن يشعر الحكام بثقل ما عليهم من مسئوليات وواجبات ، وبحقوق المواطنين الذين استرعاهم الله مالك الأمر كله أمورهم ، فينهضوا — كما ينبغى — بما عليهم من واجبات وإن كانت ثقالا : وحينئذ ، يكون لهم من شكر الناس ورضاء الضمير وثواب الله ما يجعلهم حقاً سعداء .

وهكذا تتسع هذه الكلمة حتى تشمل ، كما قلنا آنفاً ، كل ما يكون من الإنسان من قول وفعل وتصرف . ولذلك يقول المفسرون إن تلك الآية ، التى فيها الأمر بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، تضمنت جميع أحكام الدين والشريعة وآدابها .

* * *

ولأن هذا الخلق الجميل أساس من أسس الدين ، ولأنه سبب فعال لنجاح كل عمل وقبوله ، نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «الإيمان أمانة ، ولا دين لمن لا أمانة له » . كما نراه فى حديث آخر يجعل من آيات الرجل المنافق وأماراته ، أنه « إذا اؤتمن خان » .

وجليل خطر هذا الخلق، لا ينبغى أن يجازى المرء على الخيانة بمثلها، وإلا كان المجازى خائناً آثماً كمن بدأ بها، وفى هذا يقول الصادق الأمين: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

كما يقول فى حديث آخر: «القتل فى سبيـــل الله يكفر كل شىء: إلا الأمانة (أى خيانة الأمانة) فى الصلاة، والأمانة فى الصوم، والأمانة فى الحديث، وأشد ذلك الودائع».

ولأن الأمانة خلق الفطرة السليمة والطبع الكريم الأصيل كان النبى صلى الله عليه وسلم معروفاً بها بين قومه قبل أن يوحى الله إليه برسالة الإسلام.

ولذلك لما فتح الله له مكة المكرمة، وأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة، وأنزل الله عليه الآية التى ذكرناها، دعاهما وكانا مشركين حينئذ، ورد عليهما المفتاح، وهو يكون مع من له سدانة الكعبة، وقال: «خذاها (أى السدانة) خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم».

وقد ترسم ذلك أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ورجالات العرب والإسلام من بعده. فعرفوا بالأمانة فى جميع علاقاتهم بالرعية، وحتى فى معاملاتهم وحروبهم للأعداء، ولهذا كان كل من الشيخين (أبى بكر وعمر) يوصى الجند أول كل شىء بالأمانة وعدم الخيانة، وذلك كله معروف وثابت من التاريخ الصحيح.

ولنذكر الآن قليلا من الأمثلة التى سجلها التاريخ الصادق الأمين فى

هذه الناحية ، ناحية الأمانة وشدة الإحساس بالتبعة والمسئولية .

١ — لقد بلغ شعور سيدنا عمر بن الخطاب بعظم ماحمله الله من أمانة ومسئولية عن الأمة، أنه قال فى خطبة له كما يذكر الطبرى فى تاريخه : والذى بعث محمداً بالحق ، لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات خشيت أن الله يسأل عنه آل الخطاب ؛ يعنى نفسه ، مايعنى غيرها .

٢ — وهذا هو ذا أيضاً يخرج مع « أسلم » فيرى امرأة تعلل أطفالها بماء على قدر حتى يناموا جياعا ، فينطلق إلى دار الدقيق ويعود إليها حاملا كيساً منه وفيه كمية من الشحم ، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال من الطعام الذى ساعد بنفسه فى طبخه وناموا .

٣ — وشكا مرة من علة نزلت به ، فوصف له العسل، وفى بيت المال آنية منه ، فصعد المنبر وقال : إن أذنتم لى فيها أخذتها ، وإلا فهى على حرام ؛ فأذنوا له فيها .

٤ — ولما ولى الخلافة ، وشغلته أمور الأمة عن السعى لرزقه ورزق أولاده وآله ، استشار الصحابة فيما يحل له أخذه لمعيشته من بيت المال ، وانتهى الأمر بأخذه منه ما لابد منه للمعيشة الورعة كرجل من رجال المسلمين .

وكان من شدة أمانته بالنسبة لمال الأمة يقول ، كما يروى ابن سعد فى طبقاته : إنى أنزلت مال الله منى بمنزلة مال اليتيم ؛ إن استغنيت عففت عنه ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

٥ — وجاءه مرة صهر له وطلب إليه أن يعطيه شيئاً من بيت المال يدفع به حاجته ، فانتهره عمر وقال : أردت أن ألقى الله ملكا خائناً : فلما

كان بعد ذلك أعطاه ، كما يقول ابن سعد فى الطبقات ، عشرة آلاف درهم من صلب ماله .

هذا ، وإن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين وأمثالهم من الولاة العرب المسلمين ، كان على يقين من أنه يكون قدوة صالحة ، لها أثرها الكبير إذا أخذ نفسه بالعدل والأمانة فى رعاية شئون الأمة .

ولهذا كان من كلماته التى أثرت عنه هذه الكلمة : إن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله ، فإذا رتع الإمام رتعوا ؛ وهى كلمة رجل علمته التجربة ، وصار عقله ينفذ إلى بواطن الأمور .

الوفاء

ومن احترام الإنسان لنفسه ، واعتداده بكرامته ، ورعايته لما يجب من العدل والأمانة ، أن يكون من خلقه الوفاء بما يعقده من عقود وعهود . والوفاء من صفات ذوى الفطر السليمة والطباع الأصيلة الكريمة . وقد رأينا من قبل كيف كان العرب يعتزون بالوفاء ويتمدحون به ، ويستهينون فى سبيله بكل مايلقون من ضر ومكروه .

وقد أمر الله فى القرآن بالوفاء فى مواضع مختلفة وآيات كثيرة . فهو يفتتح سورة المائدة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، ويقول فى سورة الإسراء : « وأوفوا بالعهد ؛ إن العهد كان مسئولا » .

كما يقول ، جلت حكمته ، فى سورة النحل : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » .

ففى هذه الآيات نرى القرآن يأمر بالوفاء بالعقود والعهود ، ويوجه الخطاب للمؤمنين جميعاً ؛ وذلك لأن الوفاء من الأخلاق الاجتماعية لا الفردية ، فإن العهد لايكون عادة إلا بين أكثر من فرد ، أو بين دولة ودولة أو دول كثيرة .

وشدد الإسلام فى الأمر بهذا الخلق ، لأن المجتمع لايستقيم حاله إلا به ، بل ، لأن العالم لا يصح حاله إلا برعايته . فهو حقاً مناط الثقة والاستقامة بين الناس جميعاً ؛ وإلا ، فما قيمة عهد لا يرعى ، أو حلف أو ميثاق لا يحافظ عليه فلا يتحقق .

ولن نستطيع أن نتصور أن يصلح حال فرد لايرعى كلمته ولا يحافظ على شرفه ، ولا أمر دولة أو أمة لاتفى بعقد أو ميثاق أبرمته مع غيرها من الدول أو الأمم الأخرى . مصير ذلك الفرد أن ينبذه المجتمع ولا يصدق له كلمة ، وأن مصير هذه الدولة أو الأمة أن تعيش بمعزل عن المجتمعات والهيئات الدولية ، وفى هذا ما فيه من الضرر والخسارة الكبرى .

وإذا كان القرآن يأمر بالوفاء ويشدد فيه كما رأينا ، فإنه يحرم ضده وهو الغدر ، وهذا أمر بدهى ، ولهذا جعله الرسول صلى الله عليه وسلم من علامات النفاق وآياته .

فقد روى عبد الله بن عمر ، كما جاء فى صحيح مسلم ، أن الرسول قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث ؛ إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان » ، وزاد الإمام مسلم فى رواية له فى صحيحه : « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

هذا ، وإذا كان الوفاء بين الدول بعضها لبعض لا يكاد يوجد اليوم ، فكم من دولة تعادى اليوم من كانت لها حليفة بالأمس ، وتكاد الدول كلها لا تحترم حلفاً ولا ميثاقاً لا تسنده القوة ، ويكاد الغدر ونقض العهد والكلمة يكون هو سنة العالم الغربى فى هذا العصر — نقول إذا كان الأمر هكذا كما نرى ، فإن الإسلام على العكس من ذلك كله .

إن الدين الإسلامى قد عظم الوفاء ، فاتخذه العرب المسلمون لهم منهاجاً فى علاقاتهم الدولية أيضاً ؛ وقد حرم الغدر بصفة عامة مطلقة ، فاجتنبه العرب المسلمون بصفة عامة مطلقة كذلك .

وإن الإسلام — كما قلنا فى كتاب لنا ظهر منذ شهور[1] — الذى من أهدافه السامية أن يعيش العالم كله فى سلام ، بل أن يعيش تسوده المحبة والتعاون ، ليحرص الحرص كله على الوفاء بالعهود والمواثيق التى تكون بين دولته وبين غيرها من الدول الأخرى .

إن ذلك ما يحرص عليه الإسلام حتى ولو كان أبناؤه فى حال عداء

---

(١) هو كتاب « الاسلام وحاجة الانسانية اليه » .

أو حرب ، وحتى لو كان نقض العهد فى صالح المسلمين فى بادىء الرأى . وبهذا جعل الوفاء بالعهود هو الأساس الأول الذى تقوم عليه العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين .

وعلينا هنا أن نستعرض بعض ما جاء فى ذلك فى القرآن العظيم ، على أن نكتفى بالقليل الذى يثبت ما نقول ، ثم نستشهد التاريخ على أن هذا الأساس العام كان موضع التنفيذ فيما كان بين الحرب المسلمين وغيرهم من علاقات .

ومن ثم ، يكون التفسير الصحيح لبقاء حب السلام ، لا عن ضعف أو عجز ، من أسس المجتمع العربى الإسلامى حتى اليوم ، أن هذا يرجع إلى مبادىء القرآن نفسه وتعاليم رجالاته العظام .

جاء فى سورة النحل قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة : أنكاثاً[1] ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة : هى أربى من أمة » .

وينبغى أن نقف هنا عند هذه الجملة : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » ! فإن الذى يدفع بعض دول هذا العصر الذى نعيش فيه لنقض بعض ما أبرمت من عهد وميثاق ، هو أنها ترى أن فى هذا النقض مصلحتها الراهنة .

---

(١) جمع نكث ، بكسر فسكون ، وهو ماينقض من الأكسية ليغزل ثانية .

ولكن الله يلفتنا بقوة إلى أن هذه الحجة لا ينبغى أن تكون سبباً لنقض شيء مما عاهدنا دولة أخرى عليه ؛ وإلا صار أمرنا إلى ضعف ، وذلك كالتى نقضت ما أبرمت من غزل كان قوياً ، فيعود بعد نقضه شعراً لا يتماسك كما كان أولا .

وبعد ذلك ، نجد العليم الحكيم يقول فى سورة « التوبة » ، بعد أن بين أنه ورسوله بريئان من المشركين : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » .

فأولئك المشركون الذين لقى منهم الرسول والمسلمون أذى وعنتاً شديداً ، يجب أن نفى بما يكون بيننا وبينهم من عهد، ما داموا لم ينقصوا شيئاً منه ولم يظاهروا علينا غيرهم من الأعداء !

بل إن الأمر أكثر من هذا ؛ فإن الواجب الدينى يقضى بتعاون المسلمين جميعاً ، وأن يكونوا يداً واحدة على العدو المشترك . ولكن إذا كان بيننا وبين بعض هؤلاء المشركين ، أو غيرهم من أعداء الدين ، عهد وميثاق بعدم الاعتداء ، ثم يطلب منا فريق من المسلمين أن نكون معهم عليهم ؛ وجب علينا أن نمتنع ، وفاء بذلك العهد والميثاق .

وهذا ما بينه الله تعالى فى هذه الآية من سورة الأنفال : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ؛ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير » .

وبذلك بلغ المجتمع الإسلامى ، نزولا على أوامر القرآن وتعاليمه ، من الوفاء بالعهود والمواثيق ، الذروة التى لم تقاربها أمة من الأمم الأخرى فيما مضى ، ولا يمكن أن تقاربها أمة فى هذا الزمان أو أى زمان آخر بعد اليوم .

ومن الحق بعد ذلك أن نقرر أن تلك المبادىء كانت موضع التنفيذ الدقيق فى الإسلام كما يشهد بذلك التاريخ الصحيح ، بل إن هذا التاريخ ليقدم لنا مثلا رائعة لتطبيقها فى ظروف وحالات متعددة كان يعتبر العمل بها أمراً مستحيلا فى رأى غير العرب المسلمين .

هذا حذيفة بن اليمان يذكر أنه خرج هو وصاحب له يريدان الرسول بالمدينة ، فأخذتهما قريش وقالوا لهما : إنكم تريدون محمداً ، فقالا : ما نريده ، ولا نريد إلا المدينة ؛ فتركوهما بعد أخذ العهد عليهما ألا يقاتلا معه .

ولما بلغا « المدينة » أتيا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأخبراه بما كان ، فقال لهما : « انصرفا ، نفى بعهدكم ، ونستعين الله عليهم » .

ومثال آخر نجده حين صلح الحديبية . وذلك أن سهيل بن عمرو هو الذى كان يفاوض الرسول فيه ، وبينما كان يكتب عهد الهدنة ، وكان من شروطه أن من جاء محمداً من قريش وأتباعهم يرده عليهم ، وقبل أن يوقع العهد من الطرفين جاء إبنه أبو جندل يرسف فى قيوده . فلما رآه سهيل كذلك ، أخذ بتلابيبه وقال : يا محمد! قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، فقال الرسول : « صدقت » .

هذا ، وأبو جندل ينادى : يامعشر المسلمين ، أؤرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ! ولكن لم يكن بد فى رأى الرسول من إرجاعه لقريش عملا بعهد الهدنة ، ونزولا على قوله تعالى : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » ، مع أن هذا الميثاق لم يكن قد وقع بعد !.

وهذا مثال ثالث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، . فقد جىء إليه بالهرمزان أسيراً ، وكان من رجال فارس الصناديد الذين لقى العرب والمسلمون منهم عنتاً ، فقال له : تكلم ، فقال الهرمزان أكلام حى أم كلام ميت ؟ فقال عمر : تكلم ، لا بأس .

وبعد أن انتهى الحديث أراد عمر قتله جزاء ما قتل من المسلمين ، فقال له من حضره من الصحابة : ليس إلى قتله من سبيل ، إذ قلت له : لا بأس ، يعنى القائل أن هذه الكلمة العابرة تعتبر أماناً له . فخلى عمر سبيله ، فأسلم وفرض له نصيبه من العطاء .

ومثال رابع يذكره أبو الحسن البلاذرى أيضاً . فقد حاصر المسلمون حصناً فى بلاد فارس حتى أوشكوا أن يقتحموه ، ولكن عبداً مسلماً كتب من نفسه دون أن يدرى أحد ، أماناً لأهل الحصن ورمى به إليهم فى سهم ؛ فقال المسلمون ليس أمانه بشىء ، وقال أهل الحصن لسنا نعرف الحر من العبد .

فكتب المسلمون بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكتب اليهم يقول : إن العبد المسلم من المسلمين ؛ ذمته كذمتكم ، فلينفذوا أمانه .

وفى رواية أخرى أن عمر كتب إلى أبى عبيدة ، وكان قائد الجيش ،

يقول : « إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى توفوا لهم ، وانصرفوا عنهم ! » .

ومثال خامس ، ونكتفى به أخيراً فى هذه الناحية ، وقد وقع فى عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى المشهور . لقد شكا إليه أهل « سمرقند » أن قتيبة بن مسلم ظلمهم وأخذ بلادهم عن غدر .

فأمر الخليفة أن يحكم القاضى « جميع بن حاضر » فى القضية ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم ، ثم تكون الحرب من جديد ؛ فإما ظفر عنوة ، أو صلح عن تراض لاريب فيه ، ورضى الخليفة بهذا الحكم .

ولكن أهل سمرقند كرهوا الحرب ، ورضوا بما هم عليه ، وأقروا المسلمين على البلاد ، وذلك لما رأوه من عدلهم وجميل سيرتهم .

إن هذا صنيع لا يعلم التاريخ له مثيلا ، وقد أقدم عليه سيدنا عمر بن عبد العزيز اتقاء لشبهة الغدر ، وحباً للوفاء .

* * *

وبعد ! لا عجب أن يكون ذلك الصنيع المثالى من عمر بن الخطاب مع الهرمزان ، فهو الذى يقول فى كتاب له إلى سعد بن أبى وقاص حين وجهه لقتال الفرس :

فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفه[1] بإشارة أو لسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مجرى الأمان ، إلى آخر ما قال ، رضوان الله عليه .

---

(١) قرفه : داناه ، أو ألقى اليه .

وإن هذه المثل ، وهى قليل من كثير ، لتبين لنا وللعالم كله فى هذا العصر ، كما بينت ذلك فيما مضى من الزمان، أن الإسلام بتعاليمه وأخلاقه وآدابه لا يعنيه من المبادىء السامية لألاؤها وبريقها ، وإنما يعنيه تطبيقها ، بالعمل بها فى كل حال من الرخاء والشدة .

الصدق

إذا كان الإسلام يأمر بالوفاء ويشدد فيه، فإن عماده (أى عماد الوفاء) الصدق ؛ الصدق فى تنفيذ ما تعاقد عليه الإنسان ، وما أبرمه من عهد وميثاق ، وفيما بينه وبين الله من نية وعبادات .

ومن أجل ذلك كان الصدق من الأخلاق الجميلة التى أمر بها الإسلام ، فى القرآن العظيم وعلى لسان رسوله الكريم ، وكان نقيضه وهو الكذب من الأخلاق القبيحة التى حرمها العليم فى الكتاب والسنة . وكل هذا وذاك لخير المجتمع ، ودفع الأذى عنه .

* * *

ولهذا نرى الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالصدق ، وبأن يكون خلقاً راسخاً فى نفوسنا فنصدر عنه فى أقوالنا وأعمالنا . فيقول فى سورة التوبة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » . وفى تصدير الآية بقوله : « الذين آمنوا » ، إشارة إلى أن الكذب لا يتفق مع الإيمان بالله ودينه بحال .

كما يصف ، بهذا الخلق الكريم كثيرا من الرسل والأنبياء فى معرض المدح والثناء ، فيقول عن إبراهيم وإدريس عليهما السلام ! « إنه كان

صديقاً نبياً » ، وعن إسماعيل عليه السلام : « إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً » .

ويمدح رجالا من المسلمين بحسن البلاء والجهاد فى سبيل الله ، وهو سبيل الحق ، فيقول فى سورة الأحزاب حين اشتد الأمر على المسلمين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ؛ ليجزى الله الصادقين بصدقهم » .

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الخلق الذى يأمر به القرآن ويتفق مع الدين الحق ، والذى هو سبيل كمال الإنسان ، وذلك إذ يقول لمن سأله عن الكمال ما هو : « قول الحق ، والعمل بالصدق » ، ومعنى هذا بوضوح أن الصدق يكون فى القول والعمل معاً ، لا فى الحديث فقط كما قد يتبادر إلى كثير من الناس .

كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر[1] ، والبر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

وفى هذا الحديث الشريف حث شديد على الصدق ودفع إليه ، وتقبيح شديد أيضاً للكذب وتنفير منه ؛ فإنه بتكرار العمل الواحد يعتاده الإنسان ، ويصدر عنه فيما بعد بسهولة ويسر ، كما هو شأن العادات التى تصبح راسخة فى النفس ، ثم تصير أخلاقا .

---

(١) البر : اسم جامع لكل خصال الخير .

ويكفى فى بيان حسن خلق الصدق، وقبح خلق الكذب، أن الأول يتفق والإيمان بالله، وأن الثانى لا يمكن أن يتفق معه، وهذا وذاك ماقد أشرنا إليه آنفاً.

وفى هذا يقول الله تعالى: «إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله». وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلا؟ قال: نعم، قيل: أفيكون كذاباً؟ قال. لا.

وذلك لأن المؤمن قد يغلب عليه ما فطر عليه الإنسان من حب الحياة والمحافظة عليها، فلا يكون شجاعا يندفع إلى التضحية بنفسه فى كل حال. وقد يغلب عليه حب المال، وهذا أمر غريزى فى النفس، فلا يكون جواداً يؤثر الغير على نفسه ببعض ما يملك. ولكن الكاذب ما عذره؟ وليس فى الصدق تضحية بما يثقل على الإنسان عادة!

وبعد ذلك كله، يرى الإسلام بحق، وكذلك العقل السليم، أن الفطرة المستقيمة التى لم يلحقها دنس أولؤم تأبى على صاحبها إلا أن يكون صادقاً فيما يقول ويفعل؛ وذلك لأن فى الكذب جرأة على الله، وخوفاً من العبد الذى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرا.

وفى الكذب أيضاً خيانة لمن يحدثه ولا يصدقه؛ فإنه حين ركن إلى ما ألقى إليه اعتقد صدقه فيما يقول؛ فإذا كذبه الحديث، كان ذلك استغلالا سيئاً لثقته به، وإضاعة لائتمانه له، وخيانة وخداعا لصاحبه.

ولا تصلح أمور الأفراد والجماعات بمثل هذا الخلق الذميم؛ هذا

الذى ينزع الثقة ، ويضيع الأمانة ، وهو فى نفسه خداع واستغلال . ولذلك جعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما رأينا من قبل ، آية من آيات النفاق ، وخصلة من خصاله .

هذا ، والصدق الذى هو من أخلاق الإسلام الكريمة ، ودعامة من الدعامات التى يقوم عليها المجتمع الصالح ، لايكون ـ كما ذكرنا من قبل ـ فى القول فحسب ، بأن يخبر عن الواقع كما هو دون نقص أو تزيد فيه .

بل هو أعم كثيراً من ذلك ؛ إنه كما يكون فى صدق اللسان إذا تحدث ، يكون فى النية التى فى القلب ، ثم فى العزم والوفاء بما عقد النية عليه ، ثم فى العمل بعد هذا وذاك كله .

إنه يكون فى النية أولا ، وذلك بأن يكون المرء مخلصاً لله فيما نواه بقلبه ؛ وإلا ، كان كاذباً أمام نفسه إن لم يكن مخلصاً فى نيته ، وإن كان ما يصدر عنه من قول أو عمل صادقاً أمام الناس .

ومن المثل فى هذا ، أن الله العليم الخبير بما تخفى الصدور كذب المنافقين حين قالوا لمحمد عليه الصلاة والسلام : إنك لرسول الله ، مع أن هذا قول صادق فى نفسه ؛ ولكنهم كانوا كاذبين حين أظهروا أنهم يعتقدون ما يقولون ، على حين أن المعروف عنهم أنهم كانوا يظهرون غير مايبطنون ، فلم تكن نياتهم صادقة مخلصة .

وفى الحديث النبوى الشريف أن أول خلق تسعر بهم نار جهنم ثلاثة من الناس ؛ كان أحدهم يعلم الناس ما آتاه الله من علم ، وكان الثانى يتصدق مما آتاه الله من مال ، وكان الثالث يستجيب لداعى الجهاد حتى مات قتيلا .

ولكن الله كذبهم جميعاً يوم الحساب ، بأن بين لهم أنهم لم يكونوا صادقين فى نياتهم ؟ فالأول أراد أن يقال عنه إنه عالم ، والثانى أراد أن يقال إنه جواد ، كما أراد الثالث أن يقال عنه إنه شجاع . ومن هذه الناحية ناحية النية كانوا كاذبين ، وحبط ما كانوا يعملون .

ويكون الصدق ثانيــاً فى العزم والوفاء ؛ بأن يعزم إنسان على أن يتصدق إن أعطاه الله مالا ، أو يجاهد فى سبيل الله والحق إن دعا داعى الجهاد ، أو يعدل إن أصاب ولاية .

وقد يتحقق له ما كان يتمنى ، وحينئذ قد يبقى على عزمه فيصدق فى التنفيذ والوفاء . وقد يتبين له أن العزم أمر سهل لكن التنفيذ أمر عسير ، فيخور عزمه ، ولا يفى بما كان عزم عليه ، فيكون لهذا كاذباً من هذه الناحية .

ومن المثل فى الوفاء بما كان قد نواه الإنسان وعزم عليه ، ما يروى من أن أنس بن النضر لم يشهد معركة « بدر » مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فساءه ذلك وقال : لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليرين ما أصنع .

فلما كانت غزوة « أحــــد » فى العام القابل سارع مع المجاهدين ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال له : يا أبا عمرو ، إلى أين ؟ فقال : واهاً لريح الجنة ! إنى أجد ريحها دون أحد !.

ثم قاتل حتى مات شهيداً ، فوجد فى جسمه بضع وثمانون إصابة ، ما بين رمية وضربة وطعنة ، رضوان الله عليه ! فنزلت فيه آية من سورة

الأحزاب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . » الآية .

وذلك أيضاً مايرويه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة » ، إلى آخر الحديث .

وثالثاً ، من الصدق ما يكون فى العمل ، وذلك بأن يقبل الإنسان على ما يوكل إليه من الأعمال حتى يقوم بها كما ينبغى ؛ فإن لم يفعل ذلك كان كاذباً فى عمله .

ومن هذا الضرب من الصدق فى العمل أن يكون المرء مخلصاً حقاً فيما يؤديه من عبادات لله تعالى ، فهو لا يقصد إلا وجه الله وحده فى صلاته وصيامه وصدقاته وسائر أنواع العبادة ، لا يرجو بذلك إلا رضاء الله ؛ وحينئذ ، تكون سريرته وعلانيته سواء ، ويكون صادقاً فى أنه يخص الله وحده بعبادته .

وأخيراً لعلنا نرى مما قدمناه أن الصدق أساس أو جماع كثير من الأخلاق والفضائل ؛ ففيه وفاء بالعهد ، وفيه إخلاص فى العمل ، وفيه رجولة تدفع الإنسان إلى أن يقول الحق لايخاف فيه لومة لائم .

ولعلنا نرى أن ضد الصدق ، وهو الكذب ، فيه كثير من الرذائل والأخلاق القبيحة التى يجب أن يترفع عنها الإنسان اعتزازاً بإيمانه بالله وكرامته الإنسانية ، ولذلك رأينا من قبل أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصرح بأن المؤمن الحق لايكون كذاباً .

الشجاعة

عرفنا فى الفصل الأول من هذا البحث جانباً مما كان عليه العرب من هذا الخلق ، وأنهم بلغوا الغاية من حب الإقدام على المكاره والحروب، وذلك دفاعاً عن العرض والشرف ، واستجابة لنداء جار أو حليف ، ونحوهذا وذلك من البواعث التى كانت تدفعهم إلى القتال دون الاكتراث أحياناً بقيمة هذه البواعث ، ومعرفة إن كانت جديرة حقاً بأن تدفع إليه؛ وذلك لأن الشجاعة كانت خلقاً فطرياً فيهم ، فى مجموعهم .

فلما جاء الإسلام وضح لهم النهج ، وحدد لهم الغاية التى ينبغى أن يقدموا على القتال من أجلها ، وبين لهم الجزاء الحسن لمن يقتل شهيداً فى سبيلها، وبذلك حثهم على الإقدام حيث ينبغى الإقدام وإن كان فيه ما فيه من المكروه والبلاء .

وذلك لأنه ليس كل إقدام على الموت يعتبر شجاعة ، وإنما الشجاعة هى الإقدام فى الحالات التى يجب فيها الإقدام ؛ مثل الدفاع عن الدين أو الوطن، والدفاع عن النفس والعرض والمال، والدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال الذين لايجدون حيلة ولايستطيعون سبيلا لدفع مانزل بهم من ظلم وبلاء .

وفى هذا يقول الله تعالى فى سورة النساء: «فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيــاة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيلى فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

ويقول فى سورة التوبة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليـــه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله : فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وهكذا نرى الإسلام قد رسم بهذه الآية — ومثلها كثير فى القرآن — الغاية الأولى من الشجاعة فى القتال ، وهى الدفاع عن الدين ونصره ، كما أكد أن لمن عمل فى سبيلها الأجر العظيم على كل حال .

وفى الآية التى تليها فى القرآن ، وهى قوله تعالى : « ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » جعل للشجاعة والإقدام غاية أخرى ، وهى الدفاع عن الضعفاء المظلومين الذين لا يجدون سبيلا للدفاع عن أنفسهم .

ونجد من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك توسعة أخرى فى بيان الغاية التى يجب أن تقصد من القتال ، ويعتبر المقتول فى سبيلها شهيدا ، له جزاء الشهداء فى الدار الأخرى . وذلك إذ يقول فى حديث له : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهوشهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيـد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » ، وفى رواية أخرى : « ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » .

وبتحديد القرآن والحديث الغـايات التى يجب أن يقصدها المسـلم من القتال ، ولأن العرب كانوا مفطورين على خلق الشجاعة ، نفورين من الجبن ويجدونه خلقاً قبيحاً وعيباً لا يصح أن يعلق بهم ، كما هو معروف عنهم — نقول بأنهم لهذا وذاك اندفعوا إلى مادعاهم الإسلام إليه ، وكان منهم فى هذه الناحية ماسجله لهم التاريخ الصادق الأمين .

لقد زاد الإسلام خلق الشجاعة الحربية فى النفوس قوة ، وجعلهم يرون بحق أن الموت فى سبيل الحق فضل من الله ونعمة ، وأكد أن طلب الموت فى هذا السبيل قد تكون عنه الحياة المستقرة الآمنة الجيدة .

وفى هذا كان من وصيــة سيدنا أبى بكر الصديق لخالد بن الوليد ، رضى الله عنهما ، قوله : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، كما يقول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياة، فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ويقول المعتمد بن عباد الأندلسى :

ما سرت قط إلى القتـــا ل وكان من أملى الرجوع

وأخيراً، إن الله اللطيف الخبير يعلم ما يصيب الشجاع من ألم وبلاء ، حين يقدم على القتال ، فعمل على تقوية الروح المعنوية لدى المحاربين فقال : « ولاتهنوا فى ابتغاء القوم : إن تـكونو تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » .

وبهذه الآية بين الله عز وجل أنه لابد من آلام تصيب كلا من الطرفين فى الحرب والقتال ، فيجب إذن الصبر الحسن عليها ، وبخاصة أن المسلمين يرجون من الله مالا يرجوه الأعداء ، من الجزاء الحسن عنده فى الدار الأخرى فضلا عن العز والمجد فى الحياة الدنيا .

وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى بعض أحاديثه : « تـكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله

وتصديق بكلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » .

وليس بعد هذا وذاك أبعث على الشجاعة فى القتال فى سبيل الأهداف النبيلة أو الغايات المقدسة ، بل على خلق الشجاعة فى نفس الجبان !

الكرم

الإسلام دين رحمة ومحبة وليس مثل الكرم ما يعقد الألفة ويوثق المحبة بين الناس . وهو مع هذا ، دين العدل فى كل شىء ، وليس من العدل أن يعيش المرء منعماً بكل مالذ وطاب، وجاره ، أو بعض إخوته فى الدين والوطن فى حاجة إلى مايدفع الجوع ويستر الجسد ويعين على تكاليف الحياة .

ومن أجل ذلك كان الكرم من الفضائل والأخلاق التى حث عليها الإسلام ، ورغب فيها بكل ضروب الترغيب ؛ وكان ضده — وهو البخل — من الأخلاق القبيحة التى نهى عنها ، ونفر منهـا ، وتوعد بالعقاب عليها .

وقد لقى هذا من العرب نفوساً مستعدة للبذل والسخاء إلى أقصى الدرجات، وذلك كان فيهم فطرة خلقهم الله عليها . وساعد على تركيز هذا الخلق الجميل أن الإسلام ، كما يقول كتابه الأول ، صريح فى أن كل ما نملك هو منحة من الله لنا ، وفضل تفضل به علينا ، فلسنا نجود فى الواقع إلا ببعض ما أنعم به علينا من مال ، وذلك إذ يقول سبحانه وتعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

كما ساعد على هذا أيضاً ، ماوعد به الإسلام الأجواد والأسخياء من الخير فى الدنيا والآخرة ، وما بينه الله ورسوله من تعويضنا عما ننفق فى سبيل الخير أكثر مما نجود به على القريب وغير القريب من المعوزين والمحتاجين ابتغاء وجه الله .

* * *

يقول الله تعالى فى سورة سبأ : « وما تنفقوا من خير فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » . ويقول فى سورة البقرة : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون » . ويقول فى السورة نفسها : « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وأخيراً ، يقول أيضاً : « مثل الذين الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؛ « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . . .

إلى أن يقول ، بعد ما بين أن الذى ينفق ماله رياء وسمعة لن ينال من الله أى خير على ما أنفق ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير »(١) .

---

(١) الوابل : المطر الغزير والطل أضعف المطر .

وينبغي أن نقف هنا وقفة قصيرة ، وذلك لنشير إلى بعض ما يؤخذ من هذه الآيات من عظات بالغات وتعاليم عالية ، وهى :

١ — إن الكرم والجود ببعض المال لن ينقص الجواد شيئاً ، فإنه لايعطى إلا من مال الله الذى استودعه الله إياه فترة من الزمن .

٢ — إن الكرم خير للكريم نفسه ، فإن الله وعد بأنه سيخلف على من أنفق ، بل سيعوضه أكثر مما أنفق حتى لقد يبلغ العوض أضعافا كثيرة .

٣ — أن الجواد لايستحق هذا العوض الكبير إلا إذا كان باعثه ابتغاء رضا الله وحده ، فإن كان باعثه حسن الأحدوثة وأن يقال عنه : إنه كريم جواد ، حبط عمله وكان من الخاسرين ، وقد عرفنا ، ونحن نتكلم عن خلق الصدق ، ماجاء فى الحديث من أن أول من تسعر بهم نار جهنم من كان يجود ليقال عنه إنه جواد .

٤ — إن الكريم لاينبغى أن يتبع كرمه من على من أعانه بشىء من ماله ولا أذى له أى أذى ، وإلا كان هذا سبباً لإبطال صدقته وإضاعتها .

٥ — إن الله عليم بما نعمل ، وخبير بما فى الضمير من نيات ، وبصير بالبواعث التى تصدر عنها أعمالنا ، وإذن يجب أن يكون الكرم خالصاً له وحده ، على خلاف ما كان عليه العرب قبل الإسلام من أن جودهم كان رغبة فى المدح والثناء ، وطلباً لحسن الأحدوثة عنهم .

فأى حث على الكرم بعد هذا ، وأى عوامل تدعو إلى تحبيبه إلى النفوس وغرسه فى القلوب أكثر مما جاء فى القرآن .

وبعد القرآن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الكرم ويحث عليه بكل سبيل ، وينهى عن البخل وينفر منه ، وهذا وذاك فى أحاديث كثيرة نكتفى بذكر هذه منها :

يروى أبو هريرة أن الصادق الأمين قال : « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » . وروى أيضاً أنه قال : « أنفق ينفق عليك » .

وفى صحيح البخارى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أيكم ، مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ » قالوا : يارسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب إليه ، فقال الرسول : « فإن ماله ماقدم ، ومال وارثه ما أخر » .

كما قال فى حديث آخر رواه مسلم فى صحيحه : « مانقصت صدقة من مال » ، وروت أسماء بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لاتوكى فيوكى عليك » [1] .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مابقى منها ؟ » ، فقالت مابقى منها إلا كتفها . فقال : « بقى كلها غير كتفها »

وفى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ياابن آدم ! إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك » .

---

(١) أى جودى ، والا منع الله عنك . ولا توكى : أى أن لا تربطى على أموالك ، والوكاء : الرباط .

وأخيراً نذكر هذا الحديث : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل (١) .

ومن هذه الأحاديث تظهر له هذه الحقائق والعظات التى لها تأثيرها فى النفوس ، والتى تدعو بقوة إلى خلق الكرم الجميل ، وهى فى مجموعها تؤكد ما جاء فى القرآن :

١ — الله الغنى القادر ، والمجازى على الخير القليل بالخير الكثير ، يخلف على الكريم ما جاد به على المحتاج للعون والمساعدة ؛ وبذلك لا ينقص الله عطاء مال الكريم ، بل يزيده ويبارك فيه .

٢ — إن من الخير للإنسان أن يجود بما يزيد على حاجته ، وإمساكه والبخل به شر له ، لإنه لم يسعف محتاجاً بما لا يضره شيئاً .

٣ — إن الذى يبقى حقاً للإنسان من ماله هو الذى ينفقه فى سبيل الخير ، وأما ما يتركه بعد وفاته فإنه يكون لوارثه ؛ وخليق بالعاقل أن يحب من ماله ما قدمه لله ، أكثر مما يحب ما يذهب لورثته .

٤ — إن الكرم ينبغى أن يكون من المال الطيب الحلال ، لأن الله لا يقبل إلا ما كان كذلك .

٥ — إن الذى وسع الله عليه فى الرزق ، وكان عنده فضل من المال وبخل به على المحتاج ، جدير بأن يمنع الله عنه الخير ويضيق عليه فى الرزق .

---

(١) الطيب : الحلال . عدل : مثل . الفلو : المهر .

وفى الحق ، إن الإسلام قد حذر من البخل وتوعد عليه ، ويكفى هنا أن نورد هذه الآيات من القرآن الكريم :

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » الآية .

ويقول فى سورة التغابن : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وقد جاءت هذه الآية فى سورة الحشر أيضاً .

ويقول فى سورة « محمد » عليه السلام : « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء » .

وبعد هذا يقول الرسول فى حديث له : « واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من قبلكم » . والشح هو أقصى درجات البخل .

ونعتقد أن من يفقه الإسلام وتعاليمه ، وما جاء به فى ناحية الكرم والبخل ، لا بد أن ينأى بنفسه عن البخل ، ويتخلق بخلق الكرم المحمود عقلا وشرعاً فى كل حال .

التعاون

إن طريق الحياة طويل شاق ، ولا يستطيع المرء أن يقطعه وحده إلى غايته ، والإنسان — كما يقال بحق — قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وكل منا ، مهما يكن حظه من الغنى والقوة ، فى حاجة إلى من هو أقل منه .

تلك حقائق لا ريب فيها ، إذ تقوم على الواقع المشاهد المحسوس ؛

ومن ثم يجب أن يكون كل إنسان سندا وعونا لأخيه فى السراء والضراء ، وبخاصة ، بناء المجتمع الواحد والأمة الواحدة .

ولذلك أمر الإسلام بتعاون أبنائه بعضهم مع بعض . حتى صار هذا من الأخلاق التى رسخت فى نفوسهم وكان لها مظهرها من أعمالهم . وقد جاء الأمر بهذا الخلق ، والحث عليه وتحبيبه إلى النفوس والقلوب فى كثير من آيات القرآن ، وكذلك فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً » ، ويقول : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » ، ويقول : « إنما المؤمنون أخوة » .

ففى الآية الأولى ، جعل الإحسان بالوالدين أمراً مفروضاً قريناً للأمر بعبادة الله وحده . وفى الثانية ، جعل العطف والعون للمسكين ونحوه حقاً له ، لا صدقة عليه .

وفى الآية الثالثة ، يقرر فى صراحة أن رابطة الأخوة تجمع بين المؤمنين جميعاً على اختلاف بلادهم وأجناسهم وألوانهم . ومن حق الأخ على أخيه أن يعطف عليه متى احتاج ، وأن يعينه على الشدة .

ومع تلك الآيات جميعها ، نذكر هذه الآية الجامعة للأمر بالتعاون على اختلاف ضروبه ، وهى قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

فإن البر كما هو معروف اسم جامع لكل خصال الخير ، ففى الأمر بالتعاون أمر بأن يعين الغنى الفقير ، وأمر بأن يعين ذو الجاه المحتاج إلى

مساعدته بالحق ، وأمر لذوى العقول الرشيدة بتوجيه من هو فى حاجة للنصح والإرشاد إلى الطريق الخير، إلى آخر أنواع التعاون فى سبيل الخير .

* * *

وإذا كان الأمر هكذا فى القرآن ، من جعل التعاون خلقاً كريماً ينبغى التزامه بين المسلمين جميعاً ، وإن لم تربطهم صلة رحم أو قرابة ، فإن الرسول يؤكد هذا ويعضده بسيرته أو أحاديثه ، وكذلك أصحابه رضوان الله عليهم بأعمالهم التى سجلها لهم التاريخ .

يقول صلى الله عليه وسلم فى بعض أحاديثه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

كما يقول فى حديث جامع آخر : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ؛ والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » .

ويبين صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الأجر العظيم لمن يعين المحتاج ، وذلك إذ يقول : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » . كما يبين فى حديث آخر أن القادر على عون المحتاج ولا يفعل لا يكون إيمانه به وبما وصى به من أخلاق إيماناً كاملا ، وهذا إذ يقول : « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره إلى جانبه جائع » !

وكان من الطبيعى أن تثمر هـــذه الوصايا القرآنية والنبوية العالية أطيب الثمرات فى المجتمع العربى الإسلامى ، وبخاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، قدضربوا بسيرتهم فى تطبيقاتها أروع الأمثال .

ها هو ذا الرسول نفسه ، فى غزوة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة ، عندما أخذ أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة ، يعمل بيده الشريفة معهم ، ويضرب بالمعول فى صخرة اعترضت الطريق ، وبذلك تم هذا العمل الذى وقى المدينة من الأعداء المغيرين .

ومثال آخر من السنة الشريفة العملية أيضاً ، كان النبى عليه الصلاة والسلام فى سفر ، فأمر أصحابه بإصلاح شاة وإعدادها للأكل ، فقال واحد منهم : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر : يارسول الله على سلخها وقال ثالث : يا رسول الله على طبخها .

فقال الرسول . وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : قد علمت أنكم تكفوننى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، والله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يتميز بين أصحابه .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة تاركين أموالهم بمكة ، آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار ، فما كان من هؤلاء إلا أن جعل الواحد منهم كل ما يملك شطرين بينه وبين أخيه المهاجر .

وهكذا عاشوا أخوة حقاً متعاونين فى الحياة على السراء والضراء ، وصار مجتمعهم مجتمعاً مثالياً فريدا فى التاريخ القديم والحديث ، وصدق فيهم

قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وقال الرسول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر أن المرء منا لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا كان يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، فلأنه يعلم أن هذا الحب هو الذى يدفع إلى التعاون والتساند فى هذه الحياة .

فإن أى مجتمع فى أى زمان ومكان لابد أن يكون فيه الغنى والفقير ، والقادر والعاجز ؛ ومن الطبيعى إذن أن يسارع القوى إلى عون الضعيف ، وذلك هو شأن كل جماعة جمع الحب فى الله والوطن بين قلوبهم ، وألف بين نفوسهم ، فصار كل يؤمن أن من الواجب عليه لأخيه أن يعينه ببعض ما فضل عن حاجته .

وفى هذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان له فضل ظهر[1] فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . وهنا يقول راوى الحديث : أن الرسول ذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى ظننا أنه لاحق لأحد منا فى فضل !

* * *

فلنعمل ، إذاً ، على أن نكون متعاونين فى الرخاء والشدة ، وعلى أن يسارع الواحد منا بباعث من دينه وإيمانه وقلبه إلى مساعدة المحتاج ؛ بذلك نكون مؤمنين حقاً بالله ورسوله وما جاء به من آداب وأخلاق ،

---

(١) أى دابة للركوب .

ونكون إخوانا متحابين متساندين فى الضراء والسراء ، ويكون مجتمعنا مجتمعاً تعاونياً حقاً ، وبهذا نكون جميعاً سعداء .

الايثار

إذا كان الاسلام كما رأينا يأمر بالكرم والانفاق فى سبل الخير ، ويعد بحسن الجزاء عليه فى الدنيا وعظيم الثواب فى الآخرى ، فإنه قد حبب الكرم إلى أعلى درجاته ، فنشأ عنه خلق جميل وهو « الإيثار » . والإيثار خلق لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام قد تفرد به ؛ فلا يوجد على ما نعرف فى أى نظام أخلاقى سماوى آخر ، ولا نظام من صنع البشر ؛ وهو لهذا ليس خلقاً لجميع الناس ، بل للصفوة المختارة من الناس ؛ وهو لا يندب إليه فى كل حال ، بل فى بعض الحالات إذا لزم الأمر .

* * *

إن الكرم ، كما عرفنا ، هو الجود ببعض ما زاد على حاجة الإنسان مما رزقه الله ، ولكن الإيثار هو الجود ببعض ما يلزم لحاجته ، وقد يرتفع إلى الذروة فيكون هو الجود بكل ما هو فى حاجة إليه ولا يستغنى عنه بحال .

ومن هذا الضرب الأول ما رواه أبو موسى الأشعرى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث متفق عليه ، إذ قال : « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو[1] ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم

---

(١) أرملوا : فرغ زادهم ، أو قارب الفراغ .

فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » . ومعنى هذا ، أن بعضهم كان يؤثر غيره ببعض ما هو فى حاجة إليه ، ولذلك أثنى عليهم الرسول وقال إنهم منه وهو منهم .

وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر رواه الإمام مسلم فى صحيحه : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الأربعة ، وطعام الأربعة يكفى الثمانية » . كما يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى عام المجاعة : لن يهلك الناس على نصف بطونهم ، ومعنى هذا أن الايثار ، كما قلنا ، لايندب إليه فى كل حال .

ولأن الإيثار قد يكون بالنزول عن بعض ما يحتاج إليه الإنسان ، فإنه فضيلة ليست خاصة بالغنى ، بل إنه قد يكون من الفقير أيضاً ؛ وكذلك قد يكون بالمال أو بغير المال ، كما قد يكون بأشياء نظن أننا لانضطر لها ، ولكنها تترك فى النفس أثراً محموداً .

فإذا تركت مكانك فى سيارة أو ترام مثلا رعاية لامرأة ضعيفة أو شيخ هرم ، فقد آثرت من نزلت له عن مكانك براحتك . وإذا كنتما فى طريق وتركت لرفيقك المكان الظليل منه ، فقد آثرته ببرد الراحة ، وهكذا ، من مثل هذه الأمور وتلك الحالات .

والفقير الذى لايملك إلا قوته وقوت عياله ليومه ، ونزل عن بعض هذا الطعام لغيره ممن هم فى حاجة أشد منه إليه ، يكون قد آثره بهذا القليل ؛ وكذلك إذا نزل إليه عن شىء يدفع به البرد عن جسمه ، مع أنه فى حاجة إليه ، يكون من المؤثرين على أنفسهم أيضاً .

ولما لخلق الإيثار على النفس من منزلة كبيرة عند الله ، نرى القرآن يشيد به ويجعله مناط المدح لنفر من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وذلك حين يقول الله تعالى فى سورة الحشر ، «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، أى حاجة شديدة لما يبذلونه وينزلون عنه لغيرهم .

ولهذه الآية قصة يذكرها المفسرون كانت سبب نزولها ؛ فقد روى أن أبا هريرة قال : إن رجلا أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال : « ألا رجل يضيفه الليلة ، رحمه الله » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله .

فذهب به إلى أهله وقال لامرأته : ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تدخرى عنه شيئاً ، فقالت : والله ماعندى سوى قوت الصبية .

فقال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، واطفئى السراج وأريه أنا نأكل . فأكل الضيف وباتا طاويين .

فلما أصبح غدا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال (أى النبى) : « لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة وأنزل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

هكذا يمدح الله المؤثرين على أنفسهم وهم فى حاجة شديدة ، كهذا الأنصارى وامرأته ؛ وذلك لأن الإيثار من الأخلاق الإسلامية الرفيعة ، من أخلاق الصفوة من الناس ، هؤلاء الذين يؤمنون بأن فى أموالهم حقاً للفقراء والمحتاجين ، غير حق الزكاة المفروضة فى أموال الأغنياء .

وإذا كان من العوامل القوية لتثبيت خلق من الأخلاق الكريمة: القدوة الصالحة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان خير قدوة لأصحابه وأمته من بعده ، ونكتفي في إيثاره بهذا المثال .

جاء في صحيح الامام البخارى أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ببردة منسوجة[1] ، فقالت نسجتها بيدى لأكسوكها . فأخذها محتاجا إليها ، فخرج إلينا وإنها إزاره .

فقال فلان : اكسنيها ، ما أحسنها ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم » . فجلس النبي في المجلس ، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه . فقال القوم : ما أحسنت ، لبسها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ثم سألته ، وعلمت أنه لا يرد سائلا !

فقال : إنى والله ما سألته لألبسها ، إنما سألته لتكون كفنى ! فكانت كفنه .

ونختم أخيراً الكلام في خلق الإيثار الذى ندب إليه القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول فيه القدوة الطيبة لأصحابه ثم لنا من بعده ، بهذا الحديث الذى يدل على ما للمؤثرين على أنفسهم من خير عند الله .

وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته

---

١ ــ البردة : كساء أسود مربع فيه صغر تلبسه الأعراب .

وآثر بها غيره ، غفر له » . وهذا واضح فى أن الإيثار قد يكون من الغنى ومن الفقير ، كما قد يكون بالكثير والقليل على السواء .

الشكر والصبر

لا يخلو الإنسان فى حياته من أحد أمرين : يسر أو عسر ، ونعمة أو ابتلاء . واليسر لا يدوم عادة أبداً ، وكذلك العسر ، ومثل هذا حال النعمة وحال الابتلاء .

والغنى الذى وسع الله له فى رزقه ، قد تصيبه مصيبة فى جاهه وسلطانه ، أو ولده أو أحد من ذوى قرباه . وكذلك المعسر قد ينعم الله عليه بنجابة أولاده ، أو بغير هذا من نعم الله التى لا نستطيع إحصاءها لو عمدنا إلى عدها ، كما جاء فى القرآن نفسه .

« وإذا كان الأمر هكذا ، فما هو الخلق الذى يأمر الإسلام أن نواجه به كلا من هذين الحالين : حال الرخاء . وحال الشدة ؟

إن الإسلام يأمر بأن نواجه كلا منهما بما ينبغى لله مالك الأمر كله ، ومن عنده تكون النعمة كما يكون الابتلاء ؛ وذلك بالشكر على النعمة ، والصبر على المصيبة .

وهذا هو ما يليق أيضاً بالإنسان المؤمن الراضى بقضاء الله وقدره ؛ لأنه لا يعرف حقاً إن كان الخير فيما أصابه أو الشر ؛ فعسى أن يحب الإنسان شيئاً وهو شر له ، وعسى أن يكره شيئاً وهو خير له ، وهذا

وذلك ما نجد الواقع مصداقاً له فى غير قليل من الظروف والأحوال .

* * *

إن الإسلام يأمر ، إذن ، بالشكر حال النعمة ، وبالصبر حال النقمة والشدة ، ويوصى بهذين الخلقين ويحث عليهما بشدة ، ويعد بالخير الكثير فى الدنيا والآخرة على التخلق بهما .

والشكر والصبر خلقان ينبعان من الإيمان ومن الطبع السليم المستقيم ، فإذا وجد أحدهما فى إنسان وجد الآخر حين يتطلب الأمر ، ولذلك قال بعضهم : لا تثق بشكر من تعطيه حتى تمنعه ؛ فإن الصابر هو الشاكر ، والجازع هو الكافر ؛ أى الكافر بنعم الله عليه السابقة على ما نزل به من مصيبة اشتد جزعه من أجلها .

وقد أمر الله بالشكر والصبر فى مواضع كثيرة من القرآن ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من أحاديثه ، كما كانت سيرته أعظم قدوة لنا فى التحلى بهذين الخلقين العظيمين .

فقد جمع سبحانه وتعالى الأمر بذكره ، والأمر بشكره ، وذلك إذ يقول : « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » ، وأتبع هذه الآية من سورة البقرة بآية أخرى جمع فيها أمر الإنسان بأن يستعين على ما ينوبه بالصبر والصلاة ، وأكد فيها جل جلاله أنه مع الذين يصبرون بعونه ورعايته ، وهذا إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » .

ولعظم خلق الشكر جعله الله تعالى خلقاً من أخلاق الألوهية ، فقال : « والله شكور حليم » . ولأنه لا يصل إليه ولا يقوم به إلا القليل من الناس الذين يعرفون الله ويعرفون أنه المنعم المتفضل ، فيجب القيام بشكره على كل نعمة ننالها منه (وما أكثر نعمه على عباده !) ، كما يجب شكر كل من قدم لنا خيراً من الناس — لهذا ، يقول جل ذكره : « وقليل من عبادى الشكور » ، ويقول : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

وقد وعد الله الشاكرين بالخير العظيم غير المحدود من غير تخصيص ولا تعليق على شروط ، وذلك إذ يقول : « وسنجزى الشاكرين » ، ويقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

على حين أنه سبحانه وتعالى قد استثنى فى أمور أخرى ؛ فى الرزق مثلا ، فيقول : « ويرزق من يشاء بغير حساب » ، وفى المغفرة حيث يقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » ، وفى التوبة إذ يقول : « ويتوب الله على من يشاء » .

وقد علم العرب والمسلمون بشهادة الواقع والتجربة ، فضلا عما قرره القرآن العظيم ، أن الشكر خلق يستزيد النعمة ويستديمها ، وبه يأمن الإنسان زوالها وانقطاعها ، ومن هنا قال قائلهم : الشكر زيادة فى النعم ، وأمان من الغير .

كما عرفوا أيضاً بشهادة التجربة والواقع كذلك ، أن الشكر مطلوب دائماً على النعمة .

والشكر درجات مختلفة بحسب صاحب النعمة ، وصاحب الجميل ،

وفى هذا يقال : الشكر ثلاث منازل ؛ لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإفضال عليه . وفى رأينا أن هذه كلمة حق ، تبين على إيجازها الشكر وتفصله كيف يكون .

* * *

وإذا تركنا الشكر إلى الصبر ، وهما يكادان يتلازمان عادة فى هذه الحياة كما قلنا ، فإننا نجد فى القرآن أيات كثيرة ، تحث على الصبر وتعد عليه بحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة . وقد ذكرنا بعض هذه الآيات آنفاً ، وفيها يقرر الله أنه تعالى مع الصابرين بعونه ورعايته ؛ ونذكر الآن الآيات :

١ — « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

٢ — ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » .

٣ — ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » .

٤ — ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

٥ — « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

٦ — « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

٧ — « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » .

فنى هذه الآيات أن الإنسان لابد أن يناله فى حياته شىء مما يكرهه فى نفسه أو ماله أو ولده ، وحينئذ ليس له إلا الصبر والتسليم لله الذى يبشره بالجزاء الطيب على هـــذا الخلق الذى هو من أخلاق المجاهدين المكافحين . وهذا الجزاء غير محدود ، بل هو بغير حساب .

وبعد القرآن نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يجعل الإيمان نصفين : صبر على البلوى ، وشكر على النعمة ؛ وذلك ، كما أشرنا من قبل ، لأن الإنسان لايخلو من أحد هذين الحالين فى حياته ، ولابد أن يكون لكل منهما خلق يقابله ، ويجب أن يأخذ المرء نفسه به .

ثم يقول عليه الصلاة والسلام : « عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

والإنسان يرى أن أعظم ما يصاب به أن يتوفى الله أحداً ممن يحبه ، ولا ملجأ له فى هذا الحال إلا الصبر واحتسابه عند ربه ، وفى هذا يقول الرسول الأمين فيما يرويه عن الله تعالى : « ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ، ثم احتسبه ، إلا الجنة » .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر متفق عليه : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولاحزن ، ولا أذى ولاغم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله به خطاياه » .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن الصبر، وكذلك كل خلق إسلامى ، الذى يعتبر فضيلة ، جزاؤها عند الله الكريم المفضال ، هو الصبر الذى يكون

نابعا من الإيمان بالله تعالى صاحب الامر كله ، والذى لا يرجو صاحبه به أن يمدح بأنه جلد صبور مثلا ، بل لا يرجو به إلا احتساب ما أصابه من ضر عند الله وحده ؛ وإن القرآن والحديث مملوءان بالتصريح بهذا الذى نقول .

والصبر على الشدائد والمكاره هو الذى أنال العرب والمسلمين النصر على أعدائهم فى مختلف الأزمان والظروف والأحوال ، وكان سبباً قوياً لإمداد الله لهم بعونه وجنوده التى لا نراها . وذلك كله معروف فى المعارك والحروب التى خاضوا غمارها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم من بعده أيام فتوح ممالك كسرى وقيصر ، ثم من بعد ذلك إلى اليوم .

وخلق الصبر ليس مأموراً به فى الشدة والحروب فحسب ، بل منه الصبر على تكاليف ما فرض الله من طاعات ، والصبر عما حرم الله من المعاصى التى تميل إليها بعض النفوس وتشتهيها .

ولذلك روى أن سيدنا عمر بن الخطاب أرسل إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما ، رسالة يقول فيها : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر ؛ الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان .

* * *

وبعد ! إننا لا ننال ما نحب حتى نصبر على ما نكره ، والصبر من خلق الرجال ، وهو من مقاييس كمال الرجولة والإيمان ، وهو بطبيعة

الحال من أخلاق المرسلين أولى العزم ؛ لأن قيام الرسول بتبليغ رسالته وإذاعتها يقتضى منه كفاحاً وصبراً جميلا بلا ريب .

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى لنبيه المصطفى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، ويقول فى سورة الأنعام : « ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله » .

فعلينا إذن أن نتخلق بالصبر والشكر معاً ، فهما من الأخلاق الإسلامية التى أمر بها الله ورسوله ، وهما من وسائل استحقاق العبد لعون الله ونصره على الأعداء ، وهما مع هذا من الأخلاق التى بها يكون النجاح فى هذه الحياة للأفراد والجماعات .

احتمال الأذى والعفو

لو أحب كل إنسان لإخوانه فى الدين والوطن والإنسانية ما يحب لنفسه ، وكره لهم ما يكره لنفسه ، لعشنا بعيدين عن الأذى الذى يصيب به بعضنا بعضا ، ولمرت الحياة فى راحة وأمن وسلام .

ولكن الأمر ليس كذلك دائماً فى كل حال ، بل لعل هذا ليس من طبيعة الإنسان بصفة عامة ؛ ففى بعض النفوس نزعة إلى العنف ، وميل إلى ألوان من الأذى يصيب به الغير . وهنا يجد من وقع عليه الأذى نفسه بين حالات أربع كلها أشار إليها القرآن والحديث ، وكل واحدة منها لها نتيجتها وضراؤها .

إنه إما أن يقابل الأذى والشر بمثله ، فيقاوم ويرد بالشر والأذى ، منتصفاً لنفسه ممن أساء إليه . وإما أن يحتمل الأذى وهو قادر على دفعه ، ويسلم أمره إلى الله الذى ينتصف له إن شاء .

وإما أن يسمو فى طريق الخير درجة أخرى ، بأن يعفو عمن أساء إليه بغير حق ويغفر له . وأخيراً ، إما أن يرتفع إلى الذروة من الخير ؛ فهو يقابل الشر بالخير ، ويحسن إلى من أساء إليه .

فإن اختار لنفسه الحالة الأولى ، فأخذ بحقه غير متجاوز الحد ، لم يكن ظالماً لمن اعتدى عليه ، بل كان متخلقاً بالعدل ، وهو من أخلاق الإسلام كما هو معروف .

وفى هذا يقول الله تعالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » . كما يقول فى موضع آخر من القرآن : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » .

وإن جنح إلى عدم دفع الأذى بمثله وهو قادر عليه ، بل رأى ألا ينتصف لنفسه ، وكظم غيظه وأخفاه ، وسلم أمره لله إن شاء عاقب وإن شاء عفا ، كان متخلقاً بخلق إسلامى آخر وهو الرضا والتسليم لصاحب الأمر كله . وهو حينئذ يكون إلى الخير أقرب ، فربما كان هذا باعثاً إلى أن يندم المعتدى ويرتد إلى الصواب .

وإن احتمل الأذى وكظم غيظه ممن اعتدى عليه بلا سبب مشروع وارتفع إلى الخير درجة أخرى فعفا عنه ، كان رجلا قد تخلق حقاً بخلق

العفو الذى تدب إليه الإسلام ، وبه يصلح أمر الأفراد والجماعات .

وفى هذه الحالة والثانية التى قبلها ، يقول الله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

وأخيراً ، إن لم يكتف المعتدى عليه بالعفو والغفران للمعتدى ، بل قابل أذاه بالإحسان إليه ، فقد وصل إلى القمة من الخلق الجميل ، وكان ممتثلا حقاً لقوله تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ وما يلقاها[1] إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

احتمال الأذى والعفو عن المسىء فضيلة إذن ، وهذا مع مقابلة السيئة بالحسنة فضيلة أعظم . ومن أجل ذلك نرى القرآن يحث على هذه وتلك ، ويجعل الثانية فضيلة أولى العزم من الصابرين على الأذى ، مع أنهم يملكون الانتصار لأنفسهم ، وهى فضيلة من جعل له الله الحظ العظيم من الفضل والخير .

والعفو عن المذنب من وسائل رضا الله ومغفرته ، ولهذا يأمرنا ــ تعالت حكمته ــ بالعفو والصفح عن المسىء فيقول : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » !

---

(١) أى لا يؤتى هذه الخصلة أو الفضيلة .

واحتمال الأذى والعفو عن صاحبه ، من المنازل الرفيعة العالية التى لا تنال إلا بعزيمة قوية ، ومن ثم ، يقول جل شأنه فى سورة الشورى : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته مثلا أعلى فى هذه الناحية ، ولا عجب ! فقد كان ينبغى أن يكون القدوة المثلى لأصحابه ولأمته جميعاً فى كل خلق جميل محمود ، وهو الذى أمره الله بقوله : « فاصفح الصفح الجميل » . ولا يكون جميلا إلا مع القدرة على الانتصاف .

وفيه تقول السيدة عائشة رضى الله عنهـــا فى حديث متفق عليه : « ما انتقم رسـول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شىء قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى » .

ومن المعروف أنه قد نزل به ، صلوات الله وسلامه عليه ، من المشركين أذى شديد حتى لقد أذن الله ـ كما جاء فى الحديث الصحيح ـ له أن يأمر ملك الجبال فيطبق على المكذبين من قومه جبلى مكة فلا تبقى منهم باقية ، فأبى وقال : « بل أرجو ربى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » ، وهكذا كان يحمد الله تعالى ، وبفضل حلمه وعفوه صلى الله عليه وسلم.

وحين اشتد به الأذى ذات يوم ، حتى أدموا وجهه الشريف ، لم يزد على أن قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، وهكذا كان حرياً حقاً بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وبقوله : « لقد جاءكم

رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وفى ذلك أيضاً نذكر أن سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم الرسول قتل فى يوم « أحد » ، ومثل المشركون بجثته تمثيلا بشعاً ، وكان الذى تولى قتله غلام رقيق يسمى « وحشياً » كان سيده مناه إن قتل حمزة أن يعتقه .

فلما فتح الرسول « مكة » المكرمة ، خاف وحشى على نفسه منه فهرب ، ولما اشتد به اليأس من النجاة قدم على النبي فجأة وأعلن إسلامه فلم يزد صلى الله عليه وسلم — بعد أن سمع منه كيف قتل عمه رضى الله عنه — على أن قال له : « غيب عنى وجهك فلا أرينك » وعفا عنه بعد أن قتل أعز الناس لديه .

وأخيراً لما دخل الرسول مكة ، وذهبت الظنون بصناديد قريش ومن كانوا معهم على إيذاء الرسول واضطهاده ، كل مذهب ، قال لهم : « ماتظنون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم : فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً كل الحرص على أن ينتفع أصحابه بتعاليمه ، وعلى أن يقتدوا فى سلوكهم بسيرته ، وما ضرب لهم من مثل رائعة عليا لهم وللبشرية جمعاء .

ونذكر فى ذلك مارواه مسلم فى صحيحه من أن رجلا جاء إليه صلى الله عليه وسلم وقال له . يارســـول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ،

وأحسن إليهم ويسيئون إلى ، وأحلم عنهم ويجهلون على . فقال له الرسول « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل (١) ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » .

ومهما يكن من أن الحلم والعفو من أخلاق الإسلام وفضائله التى وصى بها ، وحث أبناءه على أخذ أنفسهم بها فى سلوكهم أفراداً وجماعات ؛ فإن هناك مواطن وحالات لا يباح فيها العفو عن المذنب المسىء ، بل يجب فيها الغضب وأخذ المعتدى بما جنت يداه ، ونشير من هذا إلى هذه الحالات :

الأولى — أن يكون المعتدى المسىء فاجراً وقحاً ممعنا فى إساءته ولا يصلحه العفو ، فهنا ينبغى الانتقام منه مع عدم مجاوزة الحدود . ولذلك نرى الله العلى الحكيم يذكر فى معرض المدح ، الانتصار من البغاة الظالمين فيقول : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ، وهذا حتى لا يجترئ المعتدون الذين لا ضمائر لهم تردعهم عن الشر .

والثانية — أن ينتهك إنسان حرمة من حرم الله تعالى ، ويتعدى حداً من حدوده ، فحينئذ ، يجب الغضب لله وعقاب الآثم بما يستحقه .

وفى هذا ، روت السيدة عائشة رضى الله عنها ، كما جاء فى صحيح البخارى وغيره ، أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا . من

---

(١) المل : الرماد الحار . تسفهم : تلقمهم .

يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا . من يجرؤ عليه إلا أسامة ابن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فكلمه أسامة، فقال الرسول « أتشفع فى حد من حدود الله تعالى » ؟ ثم قام فخطب الناس وقال :

« إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » !

والثالثة — وهى الحالة الأخيرة من الحالات التى ينبغى فيها رد الاعتداء وعقاب المعتدى لا الصفح والعفو ، هى أن يقع الاعتداء على الأمة من أمة أخرى ، كما حدث ويحدث كثيراً فى كل عصر وزمان .

إنه فى هذه الحالة أيضاً يكون من الواجب شرعا وخلقا رد الاعتداء بمثله محافظة على حقوق الأمة وكرامتها .

وإن ترك الانتقام فى هذه الحالات والتمسك بخلق العفو ، لا يرضى به الإسلام وأخلاقه وآدابه ، وذلك لأنه يكون سبباً للفساد والفتنة ، ويجعل المعتدى يجرؤ على البغى والعدوان .

إن الله لايحب المعتدين ، كما لا يحب الذين يرضون لأنفسهم الذل والصغار ؛ بل يحب المؤمن القوى بالله ونفسه ، الذى يقوم بما عليه من واجبات ويأخذ ماله من حقوق ؛ فبه وبأمثاله يرتقى الدين والوطن .

قوة النفس والارادة

يريد الله سبحانه وتعالى لأمة العرب والإسلام أن تكون عزيزة الجانب

فى كل حال ، موفورة الكرامة مهما تشتد الأحداث : وهذا ما لا يكون إلا إذا تخلق كل أبنائها بهذا الخلق : قوة النفس والإرادة معا .

ونعنى بقوة النفس أن ينأى الإنسان عن كل منزلة وعمل فيه شىء من الهون أو الصغار ، وألا يقبل الضيم لنفسه أو لأحد إخوانه فى الدين والوطن : ولا يخدعه متاع الحياة وزخرفها فيميل ضميره عن الحق إلى الهوى ويبعد عن الجادة والطريق المستقيم ، ويجبن عن لقاء العدو مهما يشتد الكرب والخوف ، وعن الجهاد فى سبيل الله والحق ، والدفاع عن الوطن والعرض والمال والأهل والشرف .

ونعنى بقوة الإرادة صدق العزيمة على ما رآه خيراً من الأعمال ، وأدرك أنه من الممكن أن يكون ، وإن كان فى القيام به عسر ومشقة ، فلا يثنيه عن تنفيذ ما صمم عليه ما يلاقيه فى هذه السبيل مما يتخوفه الناس عادة من متاعب وآلام ، فهو يمضى فى طريقه غير هياب ولا وجل .

وقوة النفس والإرادة من الأخلاق الإسلامية التى تتأصل فى القلوب متى وجدت أسبابها فى الإنسان ، ولها بعد ذلك النتائج الطيبة التى تعود على الفرد والمجتمع والأمة كلها فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة أيضاً .

نعم ! إن الله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه التى تؤدى إليه ، ولهذا نجد فى القرآن آيات كثيرة تحث المؤمن على أن يكون قويا فى غير ضعف إلا على الأعداء ، وعلى ألا يعطى الدنية فى نفسه أو دينه أو وطنه ، وعلى ألا يقبل الضيم من أحد مهما يكن أمره

وجماع هذه الأسباب كلها فيما نرى ، الإيمان بالله وحده مالك الأمر

كله ، فلا ينبغى لنا أن نرجو غيره أو نخاف سواه ، الله الذى يقول فى كتابه العظيم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ويقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

الإيمان بالله الذى يقول أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا » .

وأخيراً الإيمان بالله الذى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم : « ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وليس نصره إلا بالعمل بما فى الدين من شريعة وأخلاق وآداب .

وإن لنا فى ذلك كله القدوة الحسنة فيما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم ، وعن غيرهم ممن جاء بعدهم من رجالات الإسلام من جلائل الأعمال ، هذه الأعمال التى كان باعثها الأول الإيمان الحق بالله القوى العزيز ، والإيمان بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وبأنهم أوتوا خير كتاب جعله الله خاتم رسالاته الإلهية إلى العالم كله . ونريد بالإيمان الحق ، الإيمان الذى هو عقيدة وعمل ، لاعقيدة يخالفها العمل .

ها هو ذا الرسول يصدع بدعوته إلى الدين الحق ، وتضيق به قريش فترسل له من يعرض عليه أن يجعلوه أكثرهم مالا إن كان يريد المال ، أو أن يجعلوه سيدهم حتى لايقطعوا أمراً دونه إن كان يريد الشرف . فلما أكثروا عليه فى هذا ، وظن أن عمه أباطالب يميل إلى أن يجيب قريشاً

إلى بعض ما يطلبون ، لم يزد على أن التفت إليه وقال له : « ياعماه ! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » .

وهكذا ، استمر فى دعوته استناداً إلى إيمانه بالله ورعايته وعزته ، وصبر على الأذى الشديد يصيبه ومن اتبعه من المؤمنين ، حتى آتاه الله النصر المبين ، وصار الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً .

وهذا هو خليفته الصديق من بعده ، يجد نفسه فى موقف حرج شديد؛ فقد ارتد كثير من العرب عن الإسلام ، وكان سبب ارتداد فريق منهم أنهم ضاقوا بالزكاة وظنوها إتاوة يجب أن ترفع عنهم ، بينما الروم فى أطراف الشام يهددون المسلمين .

وفى هذا الحال البالغ الحرج والشدة والضيق ، نجد من المسلمين من يشير على الخليفة الأول بأن يهادن الذى منع الزكاة من المرتدين حتى يفرغ للروم ، ومن يشير بأن يؤجل بعث أسامة بن زيد إلى الشام لملاقاة الروم حتى ينتهى من حرب المرتدين .

ولكن الصديق الذى يثق كل الثقة بما وعد الله من النصر للمؤمنين ، يرفض هذين الرأيين بشدة وعنف ، ويقول عن مانعى الزكاة قولته المأثورة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول لقاتلتهم عليه » كما يصمم على إرسال بعث أسامة الذى كان الرسول قد أعده قبيل وفاته لملاقاة الروم بالشام ، وذلك عقاباً لهم على ما كانوا قد فعلوه بالمسلمين من قبل .

وهكذا، كان بفضل الإيمان بالله ونصره، وبفضل قوة نفس «الصديق» وإرادته وصدق عزيمته ، أن انتصر المسلمون على المرتدين انتصاراً حاسماً ، وأن عاد جيش أسامة ظافراً منصورا :

ونذكر بعد هذين المثلين الرائعين مثلا آخر فيه العجيب من قوة النفس وعلو الهمة وصدق الإرادة والعزيمة ، وهو يتمثل فى «عبد الرحمن ابن معاوية» الأمير الأموى الذى لايزال اسمه خالداً فى التاريخ الإسلامى ، أو هو «صقر قريش» كما لقب بذلك حقاً .

لقد فر هذا الرجل العظيم من وجه العباسيين ، بعد أن أقاموا دولتهم على أنقاض دولة الأمويين ، وانقض على الأندلس فأقام بها دولة له ولأسرته ، ورفع منار الإسلام وحضارته عالياً فى تلك البلاد ، ولم يكن له من عدة إلا مضاء عزيمته وقوة إرادته .

ومن ثم ، لقبه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى بصقر قريش . فقد قال هذا الخليفة يوما لأصحابه : أخبرونى عن صقر قريش ، فذكروا له أسماء عدة من الخلفاء ، وهو يقول دائماً : لا .

وأخيراً ، قالوا : من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : عبدالرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً ؛ فمصر الأمصار ، وجند الأجناد، ودون الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه ؛ لحسن تدبيره ، وشدة شكيمته ! وبذلك صدق فيه قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأى أن تترددا

وهكذا نرى قوة النفس وصدق الإرادة ، يحيلان الصعب ذلولا ، بل يجعلان ما كان يظن مستحيلا أمراً ممكنا ؛ وذلك لأن صرف النفس عن سفساف الأمور إلى معاليها ، والعزم الحاسم على العمل الجليل بعد أخذ العدة له يجعلان الإنسان يستهين بالعقبات ، وينفذ ما أراد ، ما دام قد رآه هو الخير واستعان بالله القوى عليه .

وهنا نذكر أن الأمير عبدالرحمن بن معاوية نفسه لما خرج من البحر إلى الأندلس أهديت له جارية على جمال بارع ، فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن شغلت عنها بما أهم به ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أهم به ظلمت همتى ؛ فلا حاجة لى بها الآن ، وردها على صاحبها ! .

* * *

تلك بعض المثل العليا الرائعة على ما كان لذلك الخلق الإسلامى الرفيع من أثر قوى محمود فى تثبيت الإسلام والدعوة إليه ، وفى انتشاره فى كافة أقطار العالم ، وفى قيام دولة له فى أوربا نفسها ؛ وقد أخذناها كلها ، ونحوها كثير لا يحصى كثرة ، من التاريخ فى الماضى من الزمان .

وفى هذا العصر الحديث ، بل فى هذه الأيام التى نعيش فيها ، نجد مثلا أخرى على ما لهذا الخلق من قوة خارقة ، سواء كان هذا للأفراد أو للجماعات .

هاهم أولاء الرئيس محمد على جناح والشاعر محمد إقبال ، ومن كان

معهما من المسلمين فى القارة الهندية ، أقاموا للإسلام دولة هناك ، هى دولة « باكستان » ، وذلك إذ صدقت منهم النية والعزيمة على أن تقوم هذه الدولة ، ولم يثنهم ما كان يقف فى سبيل هذه الغاية الجليلة من عوائق ومشقات كانت حرية أن تقعد غيرهم عما أرادوه ، ولكنهم صدقوا فيما اعتزموه وعاهدوا الله عليه ، فكان أن أعانهم وأنالهم ما أرادوه ، وكفى بالله ولياً ونصيرا .

ومحمد إقبال هذا ، وهو الذى عرف بأنه شاعر الإسلام ، بلغ من قوة نفسه واعتزازه بكرامته أن رفض قبول منصب « نائب الملك » فى جنوب أفريقية ، وقد عرضته عليه انجلترا ، ولماذا ؟

ذلك لأنه عرف أن من تقاليد هذا المنصب الكبير أن تستقبل زوجته الضيوف سافرة فى الحفلات الرسمية ، وقال فى هذا : مادام هذا شرطاً لقبول المنصب فلا أقبله ؛ لأنه إهانة لدينى ومساومة لكرامتى !

ولعل من الخير أن نذكر بعد ذلك أنه هو الذى يقول فى قصيدة له : إن المسلم المثالى لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته ؛ لأنه صاحب الرسالة والعلم اليقين ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه .

إن مقام المسلم — كما يذكر أيضاً — هو مقام الإمامة والقيادة ، والإرشاد والتوجيه . وإذا تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ؛ بل عليه أن يثور على الزمان وينازله ، ويظل معه فى صراع وعراك ، حتى يقضى الله أمره .

وأخيراً ، هو الذى يقول : المسلم الضعيف يعتذر دائماًبالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد !

تلك كلمات لا تصدر إلا من رجل قوى النفس والإرادة ، يمضى إلى الحق قدما متى تبين له ، لا تروعه الأهوال ، أو تقفه المكاره والشدائد ؛ لأن الله فى عون المؤمن الصادق الإيمان ، متى وثق به وتوكل عليه وأعد لكل أمر عدته .

ومثل أعلى آخـــر ما زلنا بحمد الله نلمسه ، وننعم بآثاره الجليلة الطيبة ، ذلك ما قام به رجال الجيش الأحرار فى مصر . إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى ، وأعانهم على تحقيق ماقصدوه من الخير لمصر والعرب وعامة الشعوب الشرقية .

لقد دفعتهم نفوسهم المؤمنة القوية إلى الثورة على الظلم والطغيان ، والفساد والمفسدين ، فكان أن تحركت الأمة بعد نوم طويل ، وانتهى الأمر بطرد الأعداء المستعمرين من بلادنا ، وأن صار العـالم كله يسمع لما تقول القاهرة أو دمشق ، وأصبح للمسلمين والعرب صـوت قوى فى المحافل والمنظمات الدولية .

كما آن للأمم الشرقية فى افريقية وآسيا أن تستيقظ وتطلب حريتها ، وتكافح فى هذا السبيل بالنفس والمـــال ؛ وها هو ذا كثير من هذه الشعوب قد وصلت إلى ما أرادت ، وعما قريب يصل الآخرون بفضل الله تعالى .

* * *

وبعد ! لا نريد بعد ذلك كله أن نطيل الكلام فيما لقوة النفس والإرادة والاعتزاز بالكرامة ، من آثار كبار فى حياة الأفراد أنفسهم ، فإن ذلك مما نلمسه جميعاً.

وكم من فرق كبير بين رجل خامل وآخر نابه ، أو بين شخص ناجح وآخر مخفق ! إن ذلك مرجعه فى أغلب الأحوال إلى التحلى بهذا الخلق النبيل الذى يدفع إلى العمل والنجاح ، ولا يظلم ربك أحدا .

الاخلاص

وأخيراً ، نتكلم عن هذا الخلق الذى هو أساس النجاح فى كل عمل ، وشرط قبوله من الله والإثابة عليه ؛ والإخلاص مطلوب فى العبادات التى فرضها الله علينا ، وفى كل ما يصدر عنا من قول أو فعل دينى أو دنيوى ، حتى النصيحة يتقدم بها الإنسان إلى ابنه أو أخيه أو غيرهما من الناس ، يجب أن تكون خالصة لوجه الله والخير ، فلا يشوبها رياء أو نفاق أو حب الثناء من الناس .

وكذلك طلب العلم والمعرفة ، أو مساعدة من يحتاج للعون ، أو الجهاد فى سبيل الدين والوطن ، أو أى عمل آخر مهما يكن نوعه من الخير .

وقد أوصى الله بالإخلاص ، بل أمر به ، فى آيات كثيرة من القرآن ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من أحاديثه .

ومن ذلك قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، وقوله « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله ،

وأخلصوا دينهم لله »، وقوله « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . وهذه الآية نزلت كما يقول رجال التفسير، فى من يعمل لله، ولكنه يحب أن يحمده الناس، أى إنه لم يكن مخلصاً تمام الإخلاص فى عبادته لله وحده .

وبعد هذه الآيات من كتاب الله العظيم، نذكر هذه الأحاديث من كلام خاتم الأنبياء والمرسلين .

١ — عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى لله ورسوله ؛ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه .

٢ — وفى صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله الأنصارى، رضى الله عنهما قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فى غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم سيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض »، وفى رواية : « إلا شركوكم فى الأجر » .

وهذا معناه أن من نوى خيرا ثم منعه عذر قاهر عن تنفيذ ما نوى عمله ، كان له أجر العمل نفسه من الله تعالى .

٣ — وروى مسلم أيضاً ، عن أبى هريرة، أن الرسول قال : إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

٤ — وعن أبى موسى الأشعرى ؛ رضى الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء،

أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله » ؛ أى له أجر المجاهد؛لأنه أخلص عمله لله وحده ، دون الآخرين .

وبعد ذلك ، يروى عن على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه أنه قال : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، لمعاذ بن جبل : « أخلص العمل لله يجزك منه القليل » .

* * *

هكذا يكون إخلاص العمل لله سبباً لقبوله من صاحبه وإثابته عليه، كما يكون عدم الإخلاص سبباً لعدم قبوله ورده على صاحبه .

على أن لهذا الخلق الإسلامى الرفيع جزاءه الحسن فى الدنيا أيضاً ، ففى حديث طويل رواه الشيخان (البخارى ومسلم) وغيرهما من رجال الحديث : قصة النفر الثلاثة الذين دخلوا غاراً للمبيت فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل سدته عليهم ، فقالوا : لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فدعا أحدهم الله أن يفرج عنهم بإخلاصه فى خدمة أبويه ، وكانا شيخين كبيرين ، حتى كان لا ينال هو أو أحد أطفاله شرابا أو طعاما قبلهما ، مهما يلق فى هذا من تعب وعناء . فانفرجت الصخرة قليلا ..

ودعا الثانى الله بأنه كان يحب ابنة عمه كأشد ما يحب الرجال النساء ، حتى إذا قدر عليها أخيراً ، وكان فى إمكانه أن ينال منها ، ذكرته الله

تعالى فانصرف عنها ابتغاء وجهه وحده وهى أحب الناس إليه؛ فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

ودعا الأخير الله بأنه كان له أجراء عملوا له بعض الأعمال ، فأعطاهم أجرهم إلا واحدا ترك الذى له وذهب ، فثمر أجره حتى زاد كثيراً، فاشترى له به إبلا وبقراً وغنما ورقيقاً . ولما جاء بعد حين يطلب أجره ، أعطاه ذلك كله ؛ لأنه فعل ما فعل فى تنميته مخلصاً لله وحده ، فانفرجت الصخرة وانزاحت عن موضعها حتى خرجوا من الغار يمشون ، ونعموا بالحياة بعد اليأس منها .

إن الإسلام يطلب من العامل أن يحسن عمله ويجىء به كاملا حسب جهوده ، وفى الحديث : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ويطلب أن يكون العمل خالصاً من شوائب الرياء وطلب حسن السمعة من الناس .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أقف الموقف (أى فى الجهاد ونحوه) أريد وجه الله . وأريد أن يرى موطنى؛ فلم يرد عليه الرسول حتى نزل قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وإن البواعث التى تبعث على العمل كثيرة : فمنها عمل الخير لأنه خير ولا يراد به إلا رضاء الله سبحانه وتعالى ، ومنها حب الظهور وحسن قالة الناس فيه ، ومنها رجاء أن ينال من ورائه تقديراً رسمياً يشرفه كوسام مثلا ، ومنها الرغبة فى استمالة قلوب الناس إليه تحقيقاً لنفع أو دفع ضرر، إلى آخر تلك البواعث النفسية الكثيرة المختلفة . والباعث الأول هو الخير

من البواعث الأخرى بلا ريب ، وهو الذى يأمر به الاسلام ويطالبه ويثيب عليه .

هذا ، وقد نزل قرآن فى كثير من الصحابة الذين كان باعثهم فى عمل الخير وجه الله وحده ، فكانوا مخلصين كل الاخلاص . ومن هذا قوله تعالى . « ويطعمون الطعام ، على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ؛ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا » .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى . « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

فقد قيل إن الآيتين الأوليين نزلتا فى على وزوجه فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنها نزلت عامة فى جميع المخلصين فى أعمالهم . وأما الآيات الأخريات فقد نزلت ، كما يقول رجال التفسير ، فى أبى بكر رضى الله عنه بعد أن اشترى « بلالا » وأعتقه ، وبذلك خلصه مما كان ينزله به سيده أمية بن خلف من العذاب الأليم .

* * *

نحن فى حاجة دائماً إلى الاخلاص فيما نقول ونعمل ، وفى هذا — فضلا عن ثواب الله فى الدار الأخرى — خير للإنسان نفسه فى الحياة الدنيا ، وخير للوطن متى أخلص كل فى عمله ، من زارع ، أو صانع ، أو تاجر ، أو عامل ، أو معلم ، أو موظف إدارى فى مكتبه ، أو صحفى ، أو عالم ، أو أديب . . .

يريد الإسلام من الموظف مثلا ، ألا يعمل خوف الرقابة ، أو رجاء علاوة أو ترقية ، ومن الصحفى أو الكاتب الأديب ألا يبغى الشهرة على أنقاض الأخلاق والحقيقة ؛ ومن الصانع والتاجر ألا يكون همه جمع المال من كل سبيل ولو كان بالغش فيما يعمل .

إنه يطلب من جميع العمال العاملين ، على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ودرجاتهم الاجتماعية ، إجادة العمل والإخلاص فيه لوجه الله والوطن .

* * *

وبعد : تلك هى أمهات الأخلاق الإسلامية كما تؤخذ من القرآن والحديث ، وهناك سائر الأخلاق الأخرى التى ترجع إليها ، ولذلك لم نر ضرورة للكلام عنها .

وإن الإسلام بعقيدته السمحة الواضحة النيرة ، وأخلاقه النبيلة المثالية ، ومعاملات بنيه الذين جعلوا سلوكهم مع غيرهم يتفق وتلك الأخلاق — نقول إن الإسلام قد أمكنه أن يغزو بذلك فقط كثيراً من البلاد النائية عن مهده فى مختلف جهات العالم ، فدخل أهلوها فيه من أنفسهم ونعموا به حتى اليوم بفضل الله تعالى .

ولننتقل بعد ذلك إلى الفصل الثالث ، وقد خصصناه للحديث عن بعض الأخلاق التى ليست من الإسلام فى شىء ، ومع هذا فإن لها من يأخذون بها ، وهم مع ذلك يحسبون أنهم من المؤمنين بالإسلام وأخلاقه وآدابه .

الفصل الثالث

أخلاق ليست من الإسلام

كان من الضرورى أن نتعرض فى الفصل الذى سبق هذا ، إلى أخلاق نهى عنها الإسلام نهياً شديداً ، وحذر منها وتوعد عليها ، وهى الأخلاق القبيحة السيئة التى تناقض كل خلق جميل محمود تكلمنا عنه فى ذلك الفصل .

وذلك كالظلم نقيض العدل : والخيانة نقيض الأمانة ، والغدر نقيض الوفاء ، والجبن نقيض الشجاعة ، والكذب نقيض الصدق ، والبخل نقيض الكرم ، وهكذا إلى آخر ما عرضنا له .

وبعد هذا ، رأينا من الضرورى أن نتكلم فى هذا الفصل عن بعض أخلاق أخرى من هذا الضرب بصفة خاصة ، لأننا نراها فاشية بكل أسف فى هذه الأيام لدى كثير من الناس ، ومن ثم تضر بهم وبالمجتمع ضرراً بليغاً .

التهرب من الواجب

كل حق بإزائه واجب ، هذا هو اساس المعاملات فى مجتمع سليم متماسك متضامن ، سعيد بأهله والقائمين على أموره ، ولهذا يكون طلب الحق ثم التهرب من تبعات الواجب ليس من خصال الإسلام وأخلاقه ، ولا يتفق مع كرامة الإنسان ورجولته .

هذا ، وإن الله - جلت حكمته وقدرته - لم يرفع من شأن إنسان ويحط من شأن آخر ، بل لم يرفع أمة ويخفض أخرى ، عبثاً بلا أسباب تقتضى الرفعة والعلو ، وأخرى تقتضى الخمول والانحطاط .

إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يفعل ، ويقضى بما شاء فى أقدار الأفراد والجماعات لأسباب لا تغيب عن الباحث فى شئون الأفراد والجماعات .

وجماع هذه الأسباب ، فيما نحن بسبيله ، ترجع فى رأينا إلى مقدار حرص كل فرد على أداء ما عليه من واجب ، أو تهربه من هذه الواجبات وإفلاته من تبعاتها .

والإنسان لا يكون مواطناً صالحاً يعتز به وطنه وبلده ومواطنوه ، بل لا يكون مؤمناً حقاً ، إلا إذا عرف واجبه تمام المعرفة ، ثم قام به على ما ينبغى ؛ سواء أحب أو كره فى كل حال ، فلا يقعده عن هذا ماقد يكون من مثبطات أو معوقات .

وذلك ، بأن الله تعالى متى علم منه النية الصادقة والعزيمة المصممة على القيام بواجبه ، أعانه عليه ، وأثابه ثواب المؤمنين الصادقين ، وثواب المكافحين فى سبيل أداء ما عليهم من واجبات : للدين والأمة ، ولهم ولذويهم . وهذا كله فضلا عما فى القيام بالواجب من خير فى الدنيا للعامل نفسه ، وللمجتمع ، وللأمة جميعاً .

وعلى ضوء هذا ، نستطيع أن نفسر هنا بحق أن السبب الوحيد لقوة الأمة العربية الإسلامية ، وانتشار نفوذها ، وبلوغها الذروة ، فى السيادة والمجد ، وفرض حضارتها على العالم الغربى فى العصر الوسيط ؛ هو عدم تهرب أبنائها مما ألقى الله عليهم من واجبات ، وقيام كل منهم بواجبه كما ينبغى ؛ فى حالة الشدة والرخاء ، واليسر والعسر ، والحرب والسلم .

لقد كان العالم ينظر دائماً إلى ما يفعلون ، والإسلام يطلب منهم الأعمال المجيدة ، ليكونوا حقاً خير أمة أخرجت للناس . فضلا عما كانوا يعتقدونه حقاً من أن الإسلام عقيدة وعمل ، وليس عقيدة فقط .

ولهذا نرى القرآن يقرن دائماً طلب الإيمان بطلب العمل ، ويقول الله العليم الحكيم فى بعض آيات القرآن المجيد : « اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

التهرب من الواجب ليس ، إذن ، من أخلاق الإسلام ، بل لا يتفق مع الإيمان بالله وقرآنه وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم التى نجد فيها دائماً القدوة والأسوة الحسنة فى كل حال .

* * *

وإننا معشر العرب والمسلمين ، فى حاجة ، هـــذه الأيام بخاصة ، إلى ألا يتهرب واحد منا من الواجبات التى عليه أن يقوم بها ، وإلى أن ينسى نفسه وكل عزيز عليه فى سبيل الدين والوطن الأكبر ؛ فليس لأحد أن يفر عند الزحف ، ولا أن يتقاعس أو يتردد فى القيام بواجبه ، وذلك حتى تأخذ أمتنا المجيدة مكانها الجدير بها بين دول العالم وأممه جميعاً .

إنه مثلا ، ليس لغنى أن يفر مما عليه من زكاة تنفق فى سبيل إعانة المحروم والفقير ، وإلا باء بالإثم وغضب الله . وليس له مع هذا أن يتهرب من الضرائب يؤديها للدولة ؛ فإن ما يجمع منها يذهب — كما نعرف جميعاً — لمصالح الوطن المواطنين .

وليس للقادر أن يهرب من عون أخيه المحتاج ، فإن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذا العون قد يكون بالمال ، وقد يكون بالعمل الجسمى ، وقد يكون بالتوجيه والإرشاد إلى ما هو خير .

وليس لأحد منا أن يتهرب من واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا متى كان قادراً على ذلك بيده أو لسانه . فأن هذا الواجب من أركان الإسلام التى جاءت فى القرآن ، وذلك كما جاء فى هذه الآيات :

١ — يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ وأولئك هم المفلحون » .

٢ — ويقول فى السورة نفسها أيضاً : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » .

٣ — ويقول فى سودة التوبة : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ويقول فى سورة المائدة : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم : ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ففى الآيات الأولى طلب شديد للأمر بما هو خير ، ونهى عما هو شر ، من القادر على الأمر والنهى من الأفراد والجماعات ، وفى الآية الأخيرة بيان ما يستحقه من يفر من هذا الواجب ، الدينى والاجتماعى معاً ، من ذم شديد وطرد من رحمة الله تعالى .

وقد عظم الإسلام من شأن النصيحة يتقدم بها الإنسان لمن يحتاج اليها وينتفع بها ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض أحاديثه : « الدين النصيحة » ، قلنا : لمن . ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وبلغ من عظم أمرها أن الرجل كان يبايع الرسول عليها كما يبايع على غيرها من أركان الدين ، وفى هـذا قال سيدنا جابر بن عبد الله فيما رواه البخارى وغيره : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

وعلى هذا : لا ينبغى لأحد أن يتهرب من هـذا الواجب متى لزم الأمر ، وإن لحقه فى ذلك مكروه ؛ فإن الناس بخير ما تناصحوا ، ولن يبلغ مقام إنسان أن يستغنى مطلقاً فى كل حال عن أن ينصحه آخر .

وبعـد ! ليس من أخلاق الإسلام أن يفر إنسان من واجبه ، مهما يكن هذا الواجب ، ومهما يكن مركز هذا الإنسان : أباً أو ابناً ، أو زارعا أو عاملا أو صانعاً ، أو تلميذاً أو معلماً : وهكذا . .

فإن من عبادة الله أن يكون المـــرء مواطناً براً بوطنه وإخوانه ، قائماً بواجباته وإن لقى فى سبيل ذلك ما يلقى من مشقات وآلام . ومتى كنا كذلك ، كان بناء الوطن أمراً ميسوراً ، وكانت إعادة مجد الأمة العربية والإسلامية أمراً محققاً بفضل الله الذى يعلى أمر المؤمنين العاملين .

السلبية في الحياة

جاء عن خاتم الأنبياء والمرسلين أحاديث كثيرة تحث على أن يكون الإنسان نافعاً لغيره ، معيناً له على أمره متى احتاج إلى العون ، ومن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس أنفعهم للناس » ، وقوله : « الخلق عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ، وفى هذا وذاك تأكيد لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

ومن البدهي أن أحداً ، مهما يبلغ من ثروته وجاهه ومقدرته ، لا يستطيع أن يستغنى عن معاونته من أحد غيره ؛ والأمر كما قال الشاعر العربي بحق :

الناس للناس من بدو وحاضرة　　بعض لبعض ، وإن لم يشعروا ، خدم

وإذا كان الأمر هكذا ، فإنه ليس من أخلاق الإسلام ما نسميه « السلبية فى الحياة » بمعنى أن الإنسان لا يهتم إلا بأمر نفسه وبما يعود عليه بالخير مباشرة ، دون نظر إلى غيره ؛ بل إنه لا يعنى بأمر غيره ممن يعيشون معه فى وطن واحد وبلد واحد ، فلا يقومه إذا اعوج ، ولا يرشده إن ضل وغوى ، ولا يعينه إذا احتاج .

* * *

إن للناس فى حياتهم طرائق مختلفة ؛ منها ما يرضاه الإسلام ، ومنها

مما ينهى عنه ، بل يراه إثماً بيناً يجب أن يتجنبه المسلم وينأى بنفسه عنه .

وإن من الناس من يشعر فى نفسه بفيض من الحيوية تدفعه إلى أن يكون ذا أثر طيب فى المحيط الذى يضطرب فيه ، وفى عمله الذى يقوم به ، فهو لا يكتفى بالقيام بعمله على ما ينبغى ، سواء أكان زارعا ، أم تاجراً ، أم صانعاً ، أم عاملا ، أم غير ذلك كله من الأعمال الأخرى ؛ بل هو يجيد عمله ويقوم به على أحسن ما يستطيع أولا ، ثم يجهد عقله ثانياً فى أن يجعل عمله أيسر وأكثر إنتاجا وعائدة لوطنه ، وبذلك يؤدى خدمة لهذا الوطن ، وربما للإنسانية كلها ، وذلك بإضافته جديداً إلى ما وصل إليه الذين سبقوه فى هذه السبيل . .

وبفضل هذا الروح القوى الذى يدفعه إلى أن يكون إيجابياً فى حياته ، ظفرت الانسانية بمن نعرف من الكاشفين والمخترعين من العرب وغير العرب ؛ هؤلاء الصفوة من الناس الذين ننعم اليوم بفضل جهودهم فى تقدم العلم والمعرفة ، وفى تيسير الحياة وجعلها أهنأ وأسعد .

ومن الناس من يقبل ما تجيء به الحياة ، دون أن يحاول أن يجعلها أفضل لنفسه ولغيره من إخوانه فى الوطن والانسانية . ومنهم من همه أن يحصل على ما يستطيع من النفع العاجل لنفسه ، ولا تعنيه مطلقاً شئون غيره ، فهو يقول مثــــلا : حسبى نفسى ! ، ولا يجد شيئاً أن يضل غيره طريق الخير .

وربما استند الواحد من هذا الصنف إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ، متجاهلا أو جاهلا

أن هذه الآية لا تعفيه من الأمر بالخير والنهى عن الشر ، ولا من العمل لخير غيره أيضاً ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وهؤلاء وأولئك هم السلبيون فى الحياة ، الذين تتأخر بسبب منهم المجتمعات والأوطان والانسانية ، وهم الأنانيون الذين لا هم لهم فى الحياة الا أنفسهم ، والذين يفيـدون من جهود غيرهم بلا عوض منهم يؤدونه لسـواهم .

* * *

ان الاسلام لا يقر هذه الطريقة السلبية فى الحياة ، ولا يرضى أن تـكون خلقاً من أخلاق أحد من أبنائه المؤمنين به ؛ فإن الله جل شأنه ، وصف ذاته بأنه الفعال ، وبأنه تعالى كل يوم هو فى شأن من شئون العالم الذى خلقه ؛ فهو لهذا يقيم عوج من اعوج ، ويرشد من ضل ، ويحث الجميع على ما فيه الخير . فعلى كل منا أن يكون فعالا فى حياته ، وإيجابياً فى المحيط الذى يعيش فيه ، وعاملا من عوامل تقدم العلم والانسانية .

إن على المسلم ، اذن ، أن يعرف أنه لم يخلق لنفسه فحسب ، ولا لينـدفع مع تيار الحياة ان سار على غير هدى ؛ بل إنه خلق ليقود العالم فى سبيل الخير ، وليقف فى سبيل الظلم والطغيان ، وليحطم أصنام الباطل التى ثقل سلطانها على القلوب أزماناً وقروناً طويلة .

وإلى هذا يشير شاعر الاسلام « محمد إقبال » بقوله فى قصيدة له : سألنى ربى هل أعجبك هذا الدهر وسالمك ؟ قلت : لا ، يا ربى ، قال : إذن

حطمه ولا تبال ! وهذه هى الايجابية فى الحياة فى أعلى درجاتها ، وأعلى مثل لها هم المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم .

ومن السلبية فى الحيـاة أيضاً ، أن يكتفى المـرء بأنه لا يفعل الشر ، ولـكنه يترك غيره يفعله دون أن يعظه ويأخذ على يده ؛ فإن ترك المفسد على إفساده دون نهيه على الأقل ، من الشر الذى لاريب فيه ، وهو يضر من يقترفه ومن يسكت على فعله وهو قادر على منعه .

وهذه الصورة من السلبية فى الحياة ينهى عنها رسول الاسلام ويضرب لها هذا المثل الرائع ، وذلك إذ يقول :

« مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثـل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من المـاء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولا نؤذى من فوقنا !

فإن تركوهم وما أرادوا هلـكوا جميعاً ، وان أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً » . رواه الامام البخارى فى صحيحه .

* * *

وبعد ! فإن « السلبية فى الحياة » لها صور كـثيرة ؛ ومن هذه الصور ما تناولناه بصريح القول ؛ ومنها ما اكتفينا فيه بالاشارة . وكلهـا صور خبيثة لاينبغى أن يتصف بها مؤمن بالله وحق الوطن والأمة عليه ؛ وكلها كانت من عوامل تقوية المستعمر وأنيابه وأظافره .

وإننا اليوم ؛ أبناء العروبة والاسلام والشرق ؛ نجتاز مرحلة حاسمة فى حاضرنا ومستقبلنا ؛ فلنكن جميعاً ايجابيين فى كل ما نأتى ونذر ؛ ولنفهم رسالتنا فهماً صحيحاً فى هذه الحياة .

إننا حين نعمل ذلك ؛ ونؤدى هذه الرسالة كاملة ؛ لأوطاننا ولأنفسنا وللأجيال القادمة ؛ نكون مؤمنين حقاً ؛ ونكون جديرين بالبنوة لأسلافنا الأمجاد . وبذلك نعيد للعروبة مجدها ؛ وللشرق كرامته .

العجز والجبن تحت أستار القناعة

إن الإسلام لا يأمر بالزهد البالغ فى الدنيا ، أو بشىء من الرهبانية ، بل نرى كتابه الأول يذكر أن الله تعالى سخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض ، ويعجب ممن حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ويأمر بالسعى والعمل فى هذه الحياة بكل طريق شريف .

إنه فى هذا يقول : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، ويقول فى سورة الجمعة : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله» ، وذلك كله إلى آيات كثيرة أخرى تحث على العمل الطيب بكل سبيل .

هذا ، ومن الحق أن القرآن حين يوازن بين الدنيا وما فيها من متع وطيبات على اختلاف ضروبها ، وبين الآخرة ومافيها من نعيم لا يخطر على قلب بشر ، نراه يصرح فى كثير من آياته بأن ما عند الله خير وأبقى ، وبأن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وذلك لما يعلمه العليم الحكيم

من امتلاك الحرص على طلب متاع الحياة الدنيا لأكثر القلوب ، ومن سوء عاقبة هذا الحرص الشديد إذا دعا إلى التنافس فى الحصول على المال والجاه بكل سبيل ، على ما نرى فى كل زمان ومكان .

ومن أجل هذا ، كانت القناعة من الفضائل الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام ، ولكنها القناعة الحقيقية لا الزائفة ؛ أى القناعة التى يرضى صاحبها بما يصل إليه من فضل الله بعد السعى والعمل له ، وليست هى القناعة التى تجعل بعض الناس يرضى بالدون من الحياة ، وهو قادر على العمل لنيل الحياة الكريمة التى تليق بالإنسان .

ومع ذلك ، فإن من الناس من فهموا كثيراً من الأخلاق الإسلامية على غير وجهها الحق ، وانحرفوا عما يراد بها ، فانقلب التواضع اتضاعا ، وصار الأدب فى الحديث كذبا ونفاقا ، والتوكل الحق على الله تواكلا ، كما صارت القناعة عجزاً وجبناً عن مواجهة الحياة وتكاليفها !

وهكذا صار كثير من الأخلاق ليس لها من الفضائل إلا الأسماء ، على حين أنها فى الواقع من الأمر رذائل وأخلاق تتنافى والإيمان، ولا ينبغى للمسلم أن يتصف بها .

وهكذا ، نحن فى حاجة إلى ثورة فى الأخلاق ، ثورة تنفى الزائف الذى تواضع عليه بعض الناس بالنسبة لكثير منها ، وتنظر نظرة جادة إلى القيم المتوارثة ؛ وذلك لتضع كلا من هذه القيم فى نصابها وفى موضعها من الحق الذى يأمر به الإسلام ويوصى به .

إننا حين نفعل هذا ، يتبين لنا حقاً أنه ليس من أخلاق المسلم أن

يعيش على هذه الأرض التى استخلفه الله تعالى فيها، ليعمرها ويقيم العدل بين أهلها وناسها ، ثم يظهر بمظهر العاجز عن عمارتها واستخراج خيراتها ، ويبدو جبانا لايجرؤ على مواجهة ما يقتضيه ذلك من مشاق وتكاليف ، موهما نفسه بأن هذا النمط من الحياة هو القناعة التى يرضى بها الإسلام ويجعلها خلقاً من أخلاقه !

إن هذا ليس فى الحق إلا عجزاً وجبناً كما قلنا ، وليس قناعة ورضا بما قسم الله له فى هذه الحياة . وليس بهذا الخلق ومثله تتقدم الأمة ، بل تتأخر .

النفاق والتزلف

الإسلام دين الصراحة فى القول والشجاعة فيه ، وهو الدين الذى يأمر بإعطاء كل ذى حق حقه وإن لم يسع إليه، وإن لم يقدم فى سبيل الوصول إليه شيئاً من وسائل القربى والزلفى. كل ذلك معروف من أصول الإسلام وآدابه وأخلاقه، ومن سير المسلمين الصادقين فى التاريخ القديم والحديث .

فهو ، إذن ، لايرى النفاق لصاحب الجاه والنفوذ والسلطان ، ولا التزلف لأحد من هؤلاء وأمثالهم ، خلقاً من الأخلاق التى أمر بها الإسلام ووصى بها أبناءه فى كل حال وزمان ومكان .

ومن الواضح أننا لانريد هنا بالنفاق ما يكون فى العقيدة الدينية نفسها ، فإن ذلك شرك وكفر بالله تعالى ، وقد يخفى على بعض الناس حينا ، ولكنه لا يخفى على جميعهم فى كل حين ؛ كما لا يخفى على الله مطلقاً ، فهو العليم بالنفوس وما تخفيه .

على أن النفاق ، وإن لم يكن فى أصل العقيدة ، وكان فى الأخلاق والسلوك ، له أمارات ودلائل تشير إليه وتعرف بصاحبه ؛ وهى الخيانة للأمانة ، والكذب فى الحديث ، والغدر فى العهد ، والفجور فى الخصومة ؛ وهذا ما يؤخذ من حديث نبوى سبق أن ذكرناه بنصه كاملا .

* * *

ليس النفاق ، إذن ، رذيلة واحدة يهون أمرها ، بل هو مجمع رذائل عديدة يفسد بها أمر الفرد والمجتمع معاً ، وما بقاء مجتمع يقوم على الخيانة والكذب والغدر والفجور !

ولذلك كان المنافقون أهلا لما توعدهم به الله فى القرآن ، وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، من العذاب الغليظ . ومن ثم ، وجب على المجتمع أن يكون حرباً على النفاق والمنافقين ، ليكون مجتمعاً نظيفاً من الأدواء ، ومستقيما يقوم على الأمانة والصدق والوفاء والخوف من الله فى كل حال .

والمنافق مع هذا كله جبان ، يخاف من الناس ولا يخاف من الله العليم بما فى الصدور ، وإلا لما خالف ظاهره باطنه ، وقوله فعله : وإلا ، لما كان ذا وجهين بين الناس ، فيلقى كلا بما يحب وهو كاذب فى الحالين .

وهذا شر كل الشر ، ولذلك نسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» .

وقد قال جماعة من الناس لعبدالله بن عمر رضى الله عنهما : إنا ندخل على أمرائنا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم من عندهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصدق ابن عمر رضوان الله عليه : فإن هذا نفاق بلا ريب فى أيام الرسول ، وهو نفاق فى هذا الزمان ، وفى كل ما يأتى من الزمان إلى يوم الدين . وإن كان بعض الناس يظنون لقاء الناس بما يحبون ، وإن كان كذباً ، ضرباً من أدب الحديث والمجاملة فيه .

إن الأدب فى الحديث وفى كل شىء أمر مطلوب بلا ريب ، على أن يسع المتحدث الصمت إن لم يسعه القول بالحق ، أو إن لم ير فى نفسه من الشجاعة ما يجعله يتقدم بالنصيحة متى لزم الأمر .

وإن من الحق كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث له ، أنه « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » ولذلك نجده يقول فى حديث آخر : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » . ونعم ما قال الرسول الأمين الذى لا ينطق عن الهوى ، والمرشد الهادى إلى كل خلال الخير وسبله .

والنفاق قد يكون آية ضعف وجبن كما رأينا ، فصاحبه يتخذ منه ذريعة للخلاص من ضرر يخشاه ، وللنجاة من عقوبة تنزل به إن ظهر منه ما يبطنه ا ومثال هذا كثير فى كل عصر ، وفيه نزل كثير من آيات القرآن . ومن هذه الآيات قوله تعالى : ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام » .

على أن هذا الخلق القبيح الذميم ، قد يكون أيضاً فى رأى من يتصفون به وسيلة للزلفى والقربى من بعض ذوى الأمر والسلطان ، وذلك رجاء أن ينالوا بفضلهم شيئاً من متاع هذه الحياة وزينتها ؛ وبئست الوسيلة ، وبئس ما يجىء منها !

وما أكثر هذا الصنف من الناس فى هذه الأيام التى نعيش فيها ! ترى الموظف الكبير يضيق مكتبه بالزوار منهم ، كما تضيق بهم غرفة الضيوف فى داره ، فهم يكثرون من التردد عليه وهو صحيح الجسم ، ويعودونه إذا شكا أقل ألم ، وهم فى كل حال يمدحونه ويثنون على كل ما يقول ويفعل بحق وبغير حق .

فاذا ترك عمله انفض السامر والسامرون ، وخلت داره من أولئك الذين كانوا يزحمونها وهو فى عمله ، فكأنهم ما كانوا يعرفون صاحبها ، وكأنهم ماحفيت أقدامهم فى السعى إليه ! وبذلك يكون الله قد أراحه من هؤلاء المنافقين المتزلفين .

* * *

على أن التاريخ القديم والحديث ، بحمد الله تعالى ، يحفظ لنا كثيراً من المثل الطيبة التى تحتقر النفاق والمنافقين ، الذين يتزلفون لأصحاب الأمر والنهى والجاه والسلطان .

لجأ الخديو إسماعيل يوما من الأيام إلى علماء الأزهر فى حرب من حروبه ، وطلب منهم قراءة صحيح الإمام البخارى ليجنبه الله هزيمة الجيش ، ففعلوا دون أن يكون لذلك الأثر الذى كان يرجوه .

فذهب إليهم غاضباً وأخذ فى تأنيبهم ، فابتدره أحدهم رضوان الله عليه بقوله . منك ياإسماعيل ! فإننا روينا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال . « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم » !

ثم أخذ يعدد له ضروب المنكرات التى امتلأ بها عهده ، ويبين له أن هذا هو السبب فى عدم استجابة الله دعاء الداعين له ولجيشه بالنصر على الأعداء

وبعد : فلنكن مخلصين لله فيما نأتى ونذر، بعيدين عن النفاق والتزلف، شجعاناً فى الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، فذلك خير للفرد والمجتمع ، والمحكومين والحاكمين ، وهو عامل قوى من عوامل نصر الله وتأييده .

الأنانية والعجب

هاتان صفتان ، أو خلقان ، ترجعان إلى معين واحد ، هو إفراط المرء فى حب نفسه ، فلا يعنيه إلا ما فيه الخير له ، ولو على حساب غيره وتقديره لما يكون منه من قول أو فعل ، حتى ليعتقد أنه لا أحد أفضل منه فى شىء ؛ وهما من أجل هذا ، ليستا من الإسلام فى شىء .

ولانحب هنا أن نطيل فى خلق الأنانية وبعده عن أخلاق الإسلام ، فقد تكلمنا فيما سبق عن أن الإسلام دين يطلب من بنيه أن يحب أحدهم لغيره مايحب لنفسه ، وأن يتعاونوا فيما بينهم فى السراء والضراء .

وليس من العاب حقاً أن يحب المرء نفسه ، فتلك غريزة فطر الله الناس عليها ، ولكن العاب أن يترك الإنسان هذه الغريزة تقوده بلا عنان فى سلوكه ؛ ولهذا حرص الإسلام فى تربية الإنسان على التمكين للنزعة الجماعية فى نفوسنا وقلوبنا ، وذلك بالكثير من مبادئه وتشريعاته .

بل إن القرآن ليثنى على الإيثار والمؤثرين ثناء طيباً ، ووضعه بين أخلاق المؤمنين مكاناً علياً . والإيثار هو الخلق المقابل تماما لحب الذات والأنانية ، وقد ذكرنا فيما سبق غير قليل من آيات القرآن ، وأحاديث الرسول فى الإيثار وفضله وقيمته العليا فى الاسلام .

والاسلام — إذ ينهى عن الأنانية لأنها خلق مقيت لا ينبغى أن يكون عليه المؤمن — ينهى عنها لأنها تدفع من يتصف بها إلى « الأثرة » وهذه الصفة إن تمكنت من إنسان تدفعه إلى أن يطلب منفعته فقط بكل سبيل ، وقد تشتد حتى لا يحس بأى واجب عليه لغيره ولو كان من أقرب الناس اليه ، فلسان حاله يقول دائماً : نفسى ، نفسى ، أنا ، أنا .

وليس أكبر من هذا قطعاً للإرحام التى أمر الله أن توصل ، ولا تمزيقا للأواصر التى يجب أن تظل قوية متماسكة بينه وبين غيره ، ولا تفريقا لأبناء الدين الواحد والوطن الواحد الذين ينبغى أن يكونوا متحابين متعاونين .

ومن الأنانية صور قد لا تبدو سافرة ، ولكنها تبدو للنظر الفاحص ، وذلك كما يكون من الغنى الواسع الثراء الذى يقول : حسبى أننى أخرجت ما على من زكاة فى مالى لوجه الله ، وأنى دفعت ما على من ضرائب للدولة ؛ ثم يضن بشىء من ماله الكثير ، الذى لا يحتاج إليه ، على وطنه حين يدعو الواجب إلى البذل والتضحية .

ومن هذا الضرب أيضاً ، أن يترك المرء أخاه فى الدين والوطن يكافح

وحده ضائقة نزلت به ؛ فهو لا يدافع عنه إذا اعتدى عليه فى ماله أو حريته أو عرضه مثلا .

* * *

هذا عن الأنانية ، وتلك بعض آثارها السيئة . أما العجب فقد عرفنا معناه ، ونذكر هنا بعض صوره من التاريخ والواقع ، وكلها سيء وقبيح وممقوت على ما بينها من تفاوت ، ثم تنتهى أخيراً ببيان بعض ما يتولد منه من نتائج وآثار .

يقول الله تعالى فى يوم حنين : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » ، إلى آخر الآية .

فقد فتح الله مكة للمسلمين ، وأمكنهم من نواصى العرب ، وكثرت جموعهم . فداخل الكثير منهم العجب بما صاروا عليه من كثرة ، ونسوا أن النصر من الله وحده ؛ فكان أن فاجأهم الأعداء من حيث لم يتوقعوا ، ونال منهم الفزع حتى ضاقت بهم الأرض على رحبها واتساعها ، ثم رد الله عليهم السكينة ، وواجهوا الأعداء فنالوا منهم نيلا عظيما ، وذلك بعد أن تلقوا هذا الدرس البليغ من الله العليم الحكيم ، وهو أن العجب لا ينبغى أن يكون من صفات المسلمين وأخلاقهم .

وقبل هذا فى غزوة خيبر ، اعتز اليهود بحصونهم وأعجبوا بها ، فكان أن اعتصموا بها ، على يقين بأنها لمناعتها سوف تمنع المسلمين عنهم .

ولكن خاب ظنهم ؛ فقد حاصرهم المسلمون حصارا شديدا ، وقاتلوهم قتالا عنيفاً . وانتهى الأمر بسقوط « خيبر » وحصونها ، ونزل أصحابها أذلاء على حكم الله ورسوله .

وفى هذه الغزوة ، يقول الله تبارك وتعالى : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ؛ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ؛ فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

تلك بعض صور العجب فى الجماعات ؛ وهو عجب كما رأينا بالقوة وكثرة العدد ؛ وما كان لذلك من آثار سيئة وهناك بعد هذا صور كثيرة من إعجاب الإنسان بنفسه من ناحية عقله ورأيه مثلا ؛ أو حسبه وشرفه ؛ أو غير هذا وذاك من الأسباب التى تدفع إلى هذا الخلق المقيت الذى يضر بالإنسان ضرراً بليغا .

ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « ثلاث مهلكات ؛ شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . ويقول فى حديث آخر ؛ « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ؛ فعليك نفسك » .

ومن إعجاب المرء بعقله أن يرى أنه يبلغ من سداد الرأى والتفطن لدقائق الأمور ما لا يبلغ إليه غيره ، وهذا نوع من الكبر الذى نهى الإسلام عنه نهياً شديداً فى القرآن والحديث .

وذلك بأنه يجر عادة إلى الاستبداد بالرأى الذى يراه ، وإلى ترك المشاورة ، وقديماً قيل : ما استنبط الصواب بغير المشاورة . ولهذا بنى الله أمر المسلمين عليها ، فجاء فى القرآن : « وأمرهم شورى بينهم » وأمر الله رسوله نفسه بأن يستشير المسلمين فقال : وشاورهم فى الأمر » .

وقد يكون سبب الإعجاب اعتداد الإنسان بحسبه وشرفه ، فيتكل عليه ويقصر فى العمل ؛ وهذه غفلة عن أن الإسلام ألغى هذا ولم يجعله مقياساً للتفاضل، وفى هذا يقول الله تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ، ويقول الرسول : « كلكم لآدم ؟ وآدم من تراب ؟ لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

كما حذر صلى الله عليه وسلم آله وقومه من أن يأتى الناس يوم القيامة بأعمالهم ، ويجيئون هم بأحسابهم ؛ وكذلك لما نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال لفاطمة ابنته وصفية بنت عبد المطلب عمته : « اعملا لأنفسكما ، فأنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » ، وهكذا كانوا يعملون رضى الله عنهم جميعاً .

* * *

وقد يبلغ إعجاب المرء بنفسه إلى أبعد الحدود فيكون مقيتاً لدى كل الناس ، وقد يكون هذا من حديثى العهد بالإسلام وآدابه ، كما يكون عن لم تخالط هذه الآداب قلوبهم وإن كانوا قد أسلموا من زمن بعيد .

هذا معاوية بن أبى سفيان يقول : قدم علقمة بن وائل الحضرمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرنى أن أنطلق به إلى منزل رجل من

الأنصار أنزله عليه ، وكان منزله فى أقصى المدينة . فانطلقت معه ، وهو على ناقة له وأنا أمشى، فى ساعة حارة ، فقلت له :

إحملنى يا عم من هذا الحر فإنه ليس على حذاء ، فقال : لست من أرداف الملوك، قلت: إنى ابن أبى سفيان (وهو من هو فى عزه وشرفه !) قال: سمعت رسول الله يذكر ذلك ، قلت: فألق إلى نعلك، قال : لا تقبلها قدماك ، ولكن أمش فى ظل ناقتى فكفاك بذلك شرفا ، وإن الظل لك لكثير !

قال معاوية : فما مر بى مثل ذلك اليوم قط . ثم أدرك سلطانى فلم أؤاخذه ، بل أجلسته معى على سريرى هذا !

وهذا عبيد الله بن زياد بن ظبيان التيمى ، حزب أهل البصرة أمر فخطب خطبة أوجز فيها وأحسن ، فنادى الناس : أكثر الله من أمثالك ، فقال هذا الأحمق : لقد كلفتم الله شططا !

وأخيراً ، هذا معبد بن زرارة كان جالساً ذات يوم فى طريق ، فمرت به امرأة فقالت : يا عبد الله ! كيف الطريق إلى موضع كذا ؟ فقال لها : ألمثلى يقال يا عبد الله ، ويلك !

بل الويل من الله لهذا الأحمق وأمثاله ، الذى لم يكن مؤمناً بالله حين أجاب المرأة هذا الجواب المنكر ! لقد تناسى ما فى شرف الانتساب إلى أنه من عباد الله ، ونسى قوله تعالى : « ان كل من السموات والأرض الا آتى الرحمن عبداً » ، وصدق الله العظيم .

ولذلك يذكر صاحب عيون الأخبار أن رجلا سأل الحجاج : كيف

وجد منزله بالعراق؟ قال: خير منزل لو كان الله بلغنى أربعة فتقربت بدمائهم إليه! وذكر منهم هذين الأخيرين.

إن التواضع لله حقاً شرف وعز، والتواضع لمن هو دوننا من الناس فضل وكرم؛ وان الكبر والإعجاب خلق مرذول وممقوت من الناس جميعاً، وله دائماً جزاؤه السيء فى الدنيا والآخرة إلا أن يغفر الله؛ فلنكن من ذلك على حذر.

الغش والخداع

من أصول الإسلام الصدق والإخلاص فى كل مايكون من الإنسان من قول أو عمل؛ فى العقيدة، فلا يشرك مع الله أحداً، وفى العبادات فلا يكون فيها مرائياً ولا منافقاً، وفى العمل للدين والوطن فلا يقصد منه طلب الجاه وحسن السمعة، وفى المعاملة فلا يغش من يعامله أو يخدعه إذا باع أو اشترى؛ ولخطر هذه الناحية نرى الرسول صلى الله علية وسلم يقول: «الدين المعاملة»

ولا يكون الغش والخداع فى البيع والشراء وسائر المعاملات فقط، بل إن له ضروبا وصوراً مختلفة وكلها نهى عنها الإسلام وحرمها.

إن الغش والخداع قد يكونان فى الكذب فى الحديث لتخدع صاحبك الذى يصدقك، وقد يكونان من الصانع فيما يصنع مخالفاً للشروط التى شرطها من يعامله، ومن البائع إذا أظهر الشيء الذى يبيعه على غير حقيقته. ومن التلميذ الذى يوهم والديه أنه يعنى بدروسه على حين أنه يتشاغل باللهو واللعب، ومن المعلم أو الموظف الذى يتظاهر بأنه حريص على عمله، على

حين أن الأمر ليس كذلك . ومن رجال السياسة حين يخدعون الدول الصغيرة فيما يبرمونه من عهود ومواثيق ، وهكذا إلى غير ذلك كله من ضروب الغش والخداع الأخرى .

هـذا ، وقد يسمى البعض ذلك مهارة يفيد منها من يصطنعها على حساب غيره ، ولكن هذا كله فى واقع الأمر غش وخداع ، ظاهر أو مستور ، ولذلك يحرمه الإسلام وينهى عنه نهياً صريحاً ؛ إذ أنه ينزع الثقة ويفسد العلاقات بين الناس ، ويزرع فى قلوبهم الكراهية والبغضاء متى وضح الأمر وظهر ما كان خافياً . .

ولذلك نرى فى تقبيح هذه الصفات ، وذمها والوعيد عليها ، آيات كثيرة من سور مختلفة من القرآن ، وكذلك أحاديث كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم . بل إننا نجد فى القرآن سورة كاملة نزلت فى ضروب الغش والخداع ، وهى سورة « المطففين » .

يقول الله تعالى فىهذه السورة : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ؛ ألايظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » !

والتطفيف فى الكيل والميزان هو النقص إذا باع من اعتاد هذا الخلق الذميم ، وفيه من الإثم أنه يقتطع من مال غيره بدون حق ، على حين أنه يحرص على أخذ حقه كاملا غير منقوص إذا اقتضاه من غيره .

وقد أبان الله جل شأنه فى الآيات الأخرى أن هـذا ذنب شنيع لا يصدر ممن يظن أنه مبعوث ومجازى على ما عمل يوم يقوم الناس لرب

العالمين للحساب ، فضلا عمن يوقن به ؛ ولو كان المطفف الغاش الخادع لمن يعامله يؤمن حقاً بذلك ، لارتدع عنه بعد أن علم خطره وضرره لغيره ولنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه .

وفى الحديث ، عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على « صبرة » (أى كومة) طعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام » ؟

فقال : أصابته السماء (أى المطر) يارسول الله ، فقال : « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ! من غشنا فليس منا » . أى ليس منا فى العادات والأخلاق والمعاملات الطيبة . وفى حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « المكر والخديعة فى النار » .

يريد الرسول الصادق الأمين أن من يخدع غيره قاصداً ضرره ، مآله إلى النار بسبب سوء عمله ؛ أما من يخدع طفله مثلا عن شىء يريده وليس من الخير له أن يناله ، بل الخير له فى صرفه عنه ، فليس ذلك من الإثم فى شىء ، ويكون هذا من باب الصرف عن الشر والجذب إلى الخير بالحيلة المشروعة .

* * *

ولخطر الغش والخداع فى المعاملات على الفرد والمجتمع ، ولرغبة الإسلام فى دفع هذا الخطر وتجنب آثاره السيئة ، نرى تشريعات انفردت بها الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية ، ومن هذه التشريعات « خيار العيب » الذى يجيز للمشترى فسخ العقد إذا وجد فيما اشتراه عيباً لم يكن يعرفه .

ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لأحد أن يبيع شيئاً إلا بين مافيه ، ولا يحل لأحد أن يعلم ذلك إلا بينه » . كما يقول فى حديث آخر : « المسلم أخو المسلم ؛ لا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً وفيه عيب إلا بينه له » .

ومن المعروف شرعا أن ما لايجوز للمسلم أن يفعله مع أخيه المسلم ، لا يجوز له أن يفعله مع من يعامله إذا كان غير مسلم أيضاً ؛ فإن غير المسلمين لهم مالنا من حقوق ، وعليهم ماعلينا من واجبات ، كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

والمسلمون الصادقون فى إيمانهم بالدين وتشريعاته وآدابه يحرصون تماماً على عدم الغش فى المعاملات ، فإن حصل وباع أحد شيئاً معيباً ولم يبين للمشترى العيب الذى فيه ، كان للمشترى الحق فى فسخ عقد البيع حتى يرد على الغاش المدلس قصده السيء .

هذا الإمام أبو حنيفة الفقيه المشهور ، يبدأ حياته تاجراً ، وكان له شريك اسمه حفص بن عبد الرحمن ، فعهد إليه بمتاع يبيعه وأعلمه أن فى ثوب كذا وكذا عيباً ، وأمره أن يبين هذا العيب عند البيع . ولكن هذا الشريك باع هذه الثياب ونسى أن يبين عيوبها ، ثم لم يعلم من هذا المشترى ، فلما علم الإمام أبو حنيفة بذلك تصدق بالثمن كله .

* * *

هذا ، وينبغى أن نشير أخيراً إلى كثير من ضروب من الغش والخداع نراها فاشية فى كثير من البلاد العربية والإسلامية ، ويجب أن نتنزه عنها .

من ذلك الزيادة فى أثمـان المبيعات رغبة فى خداع من لم يعهـد المساومة أو لا يحسنها من المشترين ، ولولا « التسعيرة الرسمية » لكثير من السلع للقى الناس من ذلك بلاء كبيراً .

ومنها ، صنيع تاجر الأثاث مثلا أو صانعه فى التأكيد من أن « الخامات » التى استعملها هى من نوع كذا ، على حين أنها من نوع آخر ردىء لم يرده المشترى .

وصنيع بعض رجال « المعمار » فى وضع كميات من الحديد والأسمنت فيما يقيمون من أبنية وعمارات أقل من المتفق عليه مع صاحب البناء ، وبيع بعض من لا أخلاق لهم قطعاً زائفة على شكل الآثار القديمة على أنها من « العاديات » الحقيقية ... ، وهكذا إلى سائر ضروب الغش والخداع المعروفة هنا وهناك ، نسأل الله أن نبرأ من ذلك كله .

اضاعة الوقت والمال :

الإسراف خلق مذموم بلا ريب سواء أكان فى المال أم فى الوقت ، لأنه يضر بالفرد والمجتمع والأمة معاً ، كما هو مشاهد وملحوظ ، إلا أنه يتبادر عادة إلى الذهن ، عند ذكر الإسراف وذمه أنه الإسراف فى المال .

والإسلام ينهى عن الإسراف فى المال بلا ريب ، كما ينهى عن البخل والتقتير فيه ، ويطلب من المسلم القصد والاعتدال ، بأن يكون فى أمره وسطاً بين التقتير الإسراف .

ولذلك ورد فى القرآن قوله تعـالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ؛ فتقعد ملوماً محسورا » ، وقوله : وآت

ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا ؛ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً » .

وجاء بعد هذا وذاك ، فى سورة الفرقان ، أن من المؤمنين الذين هم أهل لأن يكونوا من عباد الرحمن ، هؤلاء « الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

هذا ، ونحن لا نريد أن نطيل فى أمر الإسراف فى المال وضرره على الفرد والمجتمع والأمة كما قلنا ؛ فإن الأمر فيه بين معروف . ولكن نريد أن نشير إلى حالات منه مذمومة وينبغى أن يلحظها أبناؤنا فى معاهد العلم بصفة خاصة .

إن العلم لا يراد إلا للعمل ، العمل الذى هو خير طبعاً . وأدنى درجات العلم أن يعرف الإنسان وجوب التعاون بين أفراد الأمة الواحدة التى يؤلف بين بنيها الدين والصالح العام ، وهذا التعاون لا نجده فى طلبة الجامعات على ما ينبغى أن يكون ، وقد خبرت ذلك بنفسى سنين طويلة .

وإن بعض هؤلاء الطلاب قد وسع الله عليهم فى الرزق إلى حد كبير ؛ فهم يلبسون أفخر الثياب فى الشتاء والصيف ، وهم ينفقون الكثير جداً على لهوهم ، بزعم الترويح عن أنفسهم المكدودة ! ولبعضهم سيارات خاصة يسيرون بها فى غدواتهم وروحاتهم .

ولهم مع ذلك كله زملاء بجانبهم يلبس الواحد منهم ثياب الصيف

---

(١) أى كان اتفاقهم وسطا بين هذين الطرفين : الاسراف والتقتير .

فى الشتاء لأنه لا يجد غيرها ، ولا يجد ثمن الكتب الدراسية فهو يلتمسها من كل سبيل ، ويجىء إلى الكلية وينصرف منها على قدميه ، لأنه لا يجد ثمن تذكرة فى الترام أو السيارات العامة ...

فمن الإسراف من ناحية ، والتقتير من ناحية أخرى ألا يعين الواحد من الموسرين زميله المعسر ، وهو يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الله فى العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ؛ وإن القليل الذى يدفعه لزميله المحتاج ثمناً لكتاب لا بد منه له ، لا يضيره بحال ، وهو مع هذا يكتب له عند الله الذى يجزى المحسنين .

ذلك ما يفعله طلاب الجامعات فى أوربا ، كما عرفت ذلك عدة سنين بنفسى هناك ، فأولى بالعرب والمسلمين أن يفعلوا هذا هنا وفى كل مكان ، وبخاصة طلاب العلم الذين تجمعهم جامعة واحدة ، أو معهد واحد !

* * *

وبعد الإسراف فى المال وإضاعته فى سبل غير محمودة ، نذكر أن الإسراف فى الوقت فيه من الضرر والنتائج السيئة ما فى الإسراف فى المال ، بل ربما كان له نتائج أسوأ أثراً فى الفرد والأمة معاً .

إن الوقت هو رأس المال الحقيقى للإنسان ، والذاهب منه لا يعود بحال ، على حين أن المال يذهب ويجىء ، فالإسراف فيه أمر لا يقدم عليه عاقل ، ولا ينبغى أن يرضاه إنسان لنفسه يعرف هذه الحقيقة ، وكلنا يعرفها بلا ريب .

والإسلام يدعو أبناءه جميعاً إلى تقدير الوقت والزمن حق قدره ،

وينهى نهياً شديداً عن إضاعة شيء منه فى غير خير أوفائدة ؛ ولهذا جعل من الإيمان الإعراض عن اللغو ، وعن القيل والقال الذى لا خير فيه ، بل قد يأتى الضرر منه ، كما نهى عن إضاعة المال فى غير الخير .

إن الواحد منا لم يولد ليلهو ويلعب ويضيع وقته ، وربما وقت غيره هباء ، بل جاء إلى هذه الحياة ليعمل ويبتغى من فضل الله ، ليسعى لخيره وخير من يعولهم ، وليسهم بعمله فى تقدم الأمة والإنسانية جميعاً .

وفى هذا ونحوه يقول الله تعالى فى سورة القصص : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

إن من الحمق إذن ، ومما لا يتفق مع الإسلام ، أن يتغافل عن هذا إنسان ، وأن يسرف فى وقته وينفقه فيما لا يعود عليه ولا على غيره بخير؛ فإن ذلك كما قلنا فيه ضرر له ، وفيه ضرر كبير بالأمة التى تتطلب العمل والإنتاج من جميع أبنائها .

وهناك كثير جداً من الناس يقول أحدهم لصديقه أو رفيقه : تعال نقتل الوقت معاً ! ثم يذهبان إلى أحد المقاهى مثلا « للدردشة » حيناً ، وللعب بما يكون فيها من أدوات « التسلية » حيناً آخر ، ويقضون فى ذلك ساعات طويلة فى الفارغ من الشئون الذى لا طائل فيه !

وهنـــاك آخرون من الطلاب يشغلون عن الدروس والقراءة ، ويقضون الكثير من الوقت لاعبين لاهين ، حتى إذا جاء الامتحان

كانوا فيه من الراسبين ؛ وليس لأحدهم حينئذ أن يندب حظه ، فإنه هو الذى أراد ذلك لنفسه .

وهناك بعد هؤلاء وهؤلاء آخرون لا يكتفون بإضاعة رأس مالهم من الوقت ، وهو رأس مال ضخم ، لاعوض لما يضيع منه ، بل يعملون على إضاعة وقت العاملين ، وذلك بالهجوم عليهم بلا ضرورة بزيارات لا جدوى منها ، وذلك بحجة إزجاء الفراغ كما يقولون .

إن هؤلاء وأولئك جميعاً يتناسو ن ، كما قلنا آنفاً ، أن الذاهب من الوقت لن يعود إلى يوم الدين ، وأنهم — بما تعودوه من هذا الخلق القبيح المذموم شرعا وعقلا — يجنون على أنفسهم وعلى المجتمع الذى يعيشون فيه .

وإنهم مع هذا يتغافلون أيضاً عن أنهم مسئولون عما أضاع الواحد منهم فيه عمره ، كما سيسأل عما أنفق فيه ماله كذلك . وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام الترمذى :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » .

على أن الإنسان يجد دائماً مزيداً من الزمن والوقت كلما بزغ فجر يوم جديد ، فعليه أن يتدارك مافاته فى اليوم السابق بالعمل الجاد فى اليوم الذى يتلوه ؛ فيكون قد اتعظ حقاً ، وأفاد نفسه وغيره .

ومن الكلمات المأثورة القيمة هذه الكلمة : ما من يوم ينشق فجره

إلا نادى منادٍ من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ؛ فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة .

* * *

وبعد ! فنقف عند هذا الحد فى بيان بعض الأخلاق التى لا تتفق مع الإسلام ، بل التى ينهى عنها بشدة .

فعلينا أن نتقى الله فى كل ما نقول ونعمل ، وأن يحاسب كل منا نفسه قبل الحساب الأكبر أمام الله يوم الدين ؛ فإن محاسبة النفس فى هذه الحياة الدنيا باب كبير من أبواب الخير ، وطريق مستقيم لعدول الانسان عن ذميم العادات وقبيح الأخلاق ، كما بين هذا رجالات الأخلاق المسلمون وغير المسلمين فى قديم الزمن وحديثه .

ها هو ذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى يقول : « إعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق ، ينبغى أن يكون له آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء ، آخر كل سنة أو شهر أو يوم ؛ حرصاً منهم على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل . فكيف لا يحاسب الإنسان نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! إلى آخر ما قال .

إن الغزالى وأمثاله من رجال التفكير الأخلاقى يريدون بمحاسبة

الانسان نفسه أن يفحص المرء ضميره ، من وقت إلى آخر، ليعلم ما فعل من خير أو شر ، وفى هذا يقول آخر :

« لا تجعل للنوم عليك سبيلا قبل أن تعرض على نفسك ما مر فى يومك وما عملته طول النهار ؛ فتساءل عما نقصك من خير كان يجب أن تعمله ، وعما أتيت من شر كان يجب أن تتركه » .

وهكذا تستعرض أعمالك واحداً بعد آخر ؛ فإن رأيت أخيراً أنك قد اقترفت إثماً ندمت ، وإلا سررت واطمأننت ، ومن الله التوفيق .

خاتمة ونتيجة

طرق تكوين الأخلاق

لعلنا عرفنا مما سبق أن من الضرورى أن نعنى بدراسة الأخلاق الإسلامية دراسة علمية جادة ، بكل معنى الكلمة ، فى معاهدنا على اختلافها وتعدد مراحلها : فإن العلم يطلب من أجل العمل به ، ولا خير فى علم لا ينتهى بصاحبه إلى العمل الطيب المحمود الأثر .

والأخلاق الطيبة الجميلة هى ما يحتاج إليه الفرد والمجتمع والأمة فى كل زمان ومكان ، ورحم الله أمير الشعراء حين قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

حقاً إن الأخلاق الفاضلة هى التى لها الأثر القوى فى تكوين المسلم الصادق ، والرجل الكامل ، والمواطن الصالح ؛ وذلك لما تبثه فيه من العدل والوفاء ، والمحبةوالتعاون ، والكرم والإيثار ، والبذل والتضحية ، إلى غير ذلك كله من الصفات الحميدة والعادات الجميلة القوية .

ومن أجل ذلك نرى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، ونسمع الله العليم الحكيم يمدحه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ومن أجل ذلك أيضاً ، نرى فلاسفة الأخلاق المسلمين وغير المسلمين في قديم الزمن وحديثه ، يجعل كل منهم لبحث الأخلاق مكاناً ملحوظاً ومرتبة علية في تفكيره وفلسفته ؛ لأنه يراها العامل الأول في تكوين الرجال وبناء الأمم لتكون صالحة وأهلا لحياة العز والكرامة .

على أنه بالنسبة لنا - أبناء الأمة العربية والإسلام - يجب أن يكون محور دراسة الأخلاق هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن فيهما الأمر بكل حسن وجميل من القول والفعل ، والنهى عن كل ما هو سيء وقبيح من القول والفعل . وبذلك جمعا الفضائل كلها ، وأصول الأخلاق جميعها ؛ هذه الفضائل والأخلاق التي جعلت من العرب خير أمة أخرجت للناس ، فسادت العالم حين كانت ترجع إلى هذين المصدرين المقدسين في كل ما تأتى وتذر ، وإنه من الحق الذي لا ريب فيه أن هذه الأمة لا يصلح أمرها هذه الأيام إلا بما صلح به أمرها في الماضي من الزمان .

ومن الخير مع هذا ، أن نفيد في هذه الناحية بما نجده من خير في تراث أي أمة من الأمم الأخرى في ناحية الأخلاق ، وبخاصة اليونان القديمة في عصرها المجيد ، أي في أيام سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس .

* * *

هذا ، وإذا كنا ننادى بقوة بالعناية بالتربية الأخلاقية ، وبأن تكون هذه التربية على أساس أصيل متين ، فإن ذلك يستلزم ، بداهة ، الإيمان بأن

الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها مستعدة لقبول التهذيب والإصلاح ، ومن ثم ينتقل الإنسان من خلق سيء إلى آخر حسن ، متى وجد مايوجهه إلى طريق الخير ؛ وهذه الفكرة صحيحة بلا ريب .

نعم إن بعض المفكرين قد ذهبوا إلى أن الإنسان خلق خيراً بطبعه ، والشر يجيئه من البيئة السيئة التى يعيش فيها . ومنهم من ذهبوا إلى العكس ، أى إلى أن الطفل يولد شرير الطبيعة ، فيجب الوقوف فى وجه ميوله ونزعاته ، وإلا ينشأ على مافطر عليه .

وواضح فساد كل من هذين الرأيين ، ففيهما تطرف شديد ، وهما يؤديان كما يقول ابن مسكويه بحق «إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، ورفض السياسات كلها وترك الناس جميعاً همجاً مهملين ، وإلى ترك الصبيان على مايتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ؛ وهذا ظاهر الشناعة جداً » .

وإذا كان كل من هذين الرأيين ظاهر البطلان ، من ناحية العقل وبشهادة الحس والواقع أيضاً ، فإن الرأى الحق هو أن الطفل يجيء إلى الحياة وفيه استعداد للخير والشر ، ومن عمل المربى الحكيم أن يوجهه نحو الخير والطريق المستقيم .

وهذا الرأى هو الذى يقبله العقل ، وتعضده الملاحظة والتجربة ، كما يدل عليه كتاب الله العليم الحكيم ؛ إنه سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم : « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » : والنجدان هما طريقا الخير والشر . وإنه جل وعلا يقول فى سورة أخرى : « إنا هديناه السبيل ؛ إما شاكراً ، وإما كفوراً » .

ولهذا يقول الإمام الغزالى ، فى كلام طويل إن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . فإن عود الخير نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة هو ومن قام على تربيته ؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم نشأ شقياً ، وكان الوزر على من كان السبب فى ذلك .

وكذلك يذكر ابن خلدون فى مقدمته: أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ؛ غير أن استعداد الطفل للخير أقوى من استعداده للشر .

ولعل هذا هو الرأى الأحق بالقبول والاستماع إليه،وذلك ليكون المرء حقيقاً بالحساب والجزاء الحسن على مايعمل من خير ، وبالجزاء السيء على مايكون من شر ؛ مادام قد جعل استعداده للخير أقرب من استعداده للشر ، وبين له طريق كل منهما .

* * *

الأخلاق التى يكون عليها الإنسان قابلة للتغير إذن ، وسبيل هذا أن يروض الإنسان نفسه على الميل إلى الأخلاق الفاضلة دائماً ، وأن يجاهد فى هذا السبيل هواه وغرائزه وشهواته التى تميل به إلى الأخلاق القبيحة والرذائل، فينال من الناس المدح والثناء، ومن الله حسن الجزاء فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

قد يشق الكفاح فى سبيل تهذيب النفس وحملها على الفضيلة ، وقد

يطول هذا الجهاد ، ولكنه ينتهي دائماً بالنجاح والوصول إلى المراد متى صدقت النية والعزم والإرادة الطيبة ؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وهو الذي يقول في كتابه العظيم : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ؛ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[1].

ولا ينكر قبول الأخلاق للتغير، من قبيح إلى حسن مثلا ، إلا مكابر مكذب للواقع الذي نحسه ونشاهده ؛ وهذا ليس فقط في الإنسان ، بل في الحيوان أيضاً الذي لم يمنحه الله قوة للعقل والتمييز .

فهذه كلاب الصيد والصقور مثلا ، ينتقل الواحد منها من الشره إلى أكل ما يجده ـ وهذا ما فطر عليه ، إلى أن يمسك الصيد ويحفظه لصاحبه ؛ وكثير من الطيور والحيوانات المتوحشة ينتقل من طبيعته هذه إلى أن يصير مستأنساً ، ويغدو ذلولا طيعاً لصاحبه . وكلنا نلاحظ هذا في الأسود والفيلة والقرود في حدائق الحيوانات، وفي غيرها من الحيوانات الأخرى والطيور ؛ وكل هذا تغير في الطباع والأخلاق بلا ريب يتم بالتدريب، مع أنه لا عقول لها .

فإذا كان ذلك يكون في الطيور والحيوانات ، فبالأولى يكون في الإنسان الذي منحه الله قوة العقل والتمييز بين ما هو حسن وما هو سيء

---

(١) سواها : خلقها معتدلة ، فألهمها فجورها وتقواها : عرفها طريق الخير وطريق الشر ، أفلح من زكاها : فاز من طهر نفسه بالطاعات ، خاب من دساها : خسر من أغوى نفسه وزين لها المعاصي فضلت .

من الأخلاق ، وبين له طريق كل منهما ، ودعاه إلى حمل نفسه ومجاهدتها حتى تسير فى طريق الخير .

ومن ناحية أخرى ، لو لم يكن الأمر هكذا لما كان هناك معنى لإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، والوحى بالكتب الإلهية المقدسة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولما كان هناك جدوى مطلقاً من النصائح والمواعظ وكل سبل التأديب والتهذيب .

وبعد هذا وذاك كله ، إنه ما أعظم الفرق فى الطباع والعادات والأخلاق بين شباب نالوا حظاً وافراً من الثقافة والتهذيب والقدوة الحسنة ، وبين آخرين من أترابهم حرموا هذه التربية الطيبة !

وما أكثر العرب الذين غير الإسلام أخلاقهم بعد أن هدوا إليه ، فصاروا رحماء فيما بينهم بعد أن كانوا قساة القلوب ، وعدولا ولو على أنفسهم وقد كانوا من أعوان الظلم ! وهكذا إلى غير ذلك من جميل الأخلاق . وما أكثر ما يفعل المرض مثلا فى تغيير الأخلاق ! فينقل صاحبه من الكبر إلى التواضع ، ومن الشره والجشع إلى القناعة ، ومن الغلظة إلى الرأفة ! وهكذا .

* * *

وأخيراً ما هو الطريق ، أو الطرق ، إلى تكوين الأخلاق الجميلة ؟ هنا نجد ابن خلدون يقول فى مقدمته : « إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر ؛ وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه .

ويقول أبو على ابن سينا الفيلسوف الإسلامى المعروف : « ويمكن الإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصله لنفسه ، ومتى صدفت نفسه عن خلق حاصل جاز أن ينتقل بإرادته عن ذلك إلى ضد ذلك الخلق .

والذى يحصل به الإنسان لنفسه الخلق ويكتسبه متى لم يكن له خلق ، أو ينقل نفسه عن خلق صدفت نفسه عنه ، هو العادة ، وأعنى بالعادة تكرير فعل الشىء الواحد مرارا كثيرة ، أزمانا طويلة فى أوقات متقاربة ؛ فإن الخلق الجميل إنما يحصل من العادة ، وكذلك الخلق القبيح » .

ويقول ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق : « ومنها ،[1] ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ، ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا » .

ويقول علماء التربية : العادة طبع ثان . يريدون بذلك بيان ما للعادة من أثر قوى فى الإنسان ، وقد تقوى حتى تصير طبعاً لصاحبها .

إذن العامل الحاسم فى تكوين الأخلاق الجميلة هو تعويد الطفل والفتى الناشىء العادات الطيبة ، ثم تثبيتها فى نفسه بتكرارها حتى تصير كأنها طبع له . والسبيل لذلك هو ما يراه من القدوة الحسنة فى والديه ، ومن يقومون على تنشئته وتثقيفه ، وسائر من يحيطون به ويعيش بينهم .

---

(١) أى الحال النفسية التى تنقلب خلقا .

وإن للأم من الأثر فى الطفل ما ليس لغيرها مطلقاً ، فهى أول معلم له يحبه ويطيعه ، وإن أزمة الأمم معقودة بأيدى الأمهـــات ، ومستقبل البلاد رهن بأيدى النساء حقاً ؛ وفى هذا يقول شاعر النيل :

الأم مدرسة ، إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وللأب أثره كذلك فى تكوين العادات والأخلاق لولده ، سواء كانت جميلة أم قبيحة ، وكذلك المدرسة والصحف والمجلات والكتب ، ودور السينما والتمثيل ، وغير ذلك كله مما يحيط بالناشىء وتقع عليه عيناه .

ومن ثم ، يجب العناية بأن يكون كل ذلك مما يوحى إلى الناشىء بأحسن العادات وأفضل الأخلاق .

والتدريب على ما هو حسن وجميل من العادات والأخلاق ، يعود كذلك بالخير الكثير على الإنسـان ؛ سواء كان التدريب ممن يقوم على تربيته ، أم منه هو نفسه ، متى صار له تفكيره وإرادته المستقلة .

مثلا ، من يشعر من نفسه أنه متكبر ، ويريد أن يكون متواضعاً ، فعليه أن يتكلف أفعال المتواضعين مدة طويلة ، ويجاهد نفسه فى هذه السبيل حتى يتعود التواضع ويصير له خلقاً .

ومن يحس أنه بخيل ، عليه أن يكثر من البذل والإعطاء فى كل حال ، وبفضل هذا ينتهى بأن يكون جوادا كريماً يبذل من ماله متى كان البذل

محموداً ؛ وهكذا يتم أيضاً اكتساب خلق النجدة والشجاعة والصدق والعفة والعدل ، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة الجميلة .

* * *

وبعد : هذا ما وفق الله لكتابته ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا العليم الحكيم ، وهو يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم .

وأسأل الله أن يكون فيما كتبته فائدة لقارىء ، أو عون لباحث ؛ وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو على كل شىء قدير ؟

الفهـــرس

صفحة

افتتاح ومنهاج ٣

الفصل الأول : فى الأخلاق العربية قبل الاسلام ٥

المروءة ٧

الشجاعة ٨

الحلم والغضب ١٠

الكرم ١٢

الوفاء ١٤

الفصل الثانى : فى الأخلاق فى الاسلام ٢١

العدل ٣٢

الأمانة ٣٨

الوفاء ٤٣

الصدق ٥١

الشجاعة ٥٧

الكرم ٦٠

التعاون ٦٥

الايثار ٧٠

الشكر والصبر ٧٤

احتمال الأذى والعفو ٨٠

قوة النفس والارادة ٨٦

الاخلاص ٦٤

الفصل الثالث : أخلاق ليست من الاسلام ١٠٠

التهرب من الواجب ١٠٠

صفحة

السلبية فى الحيـــاة ١٠٥
العجز والجبن تحت ستار القناعة ١٠٩
النفـــاق والتزلف ١١١
الأنانية والعجب ١١٥
الغش والخـــداع ١٢١
اضاعة الوقت والمـــال ١٢٥

خاتمة ونتيجة : طرق تكوين الأخلاق ١٣١

طبع بمطبعة العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة
تليفون ٤٤٧٠٦



الثمن ١٥ قرشا



مؤسسة المطبوعات الحديثة
شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة
الجمهورية العربية المتحدة